الإصدار 1

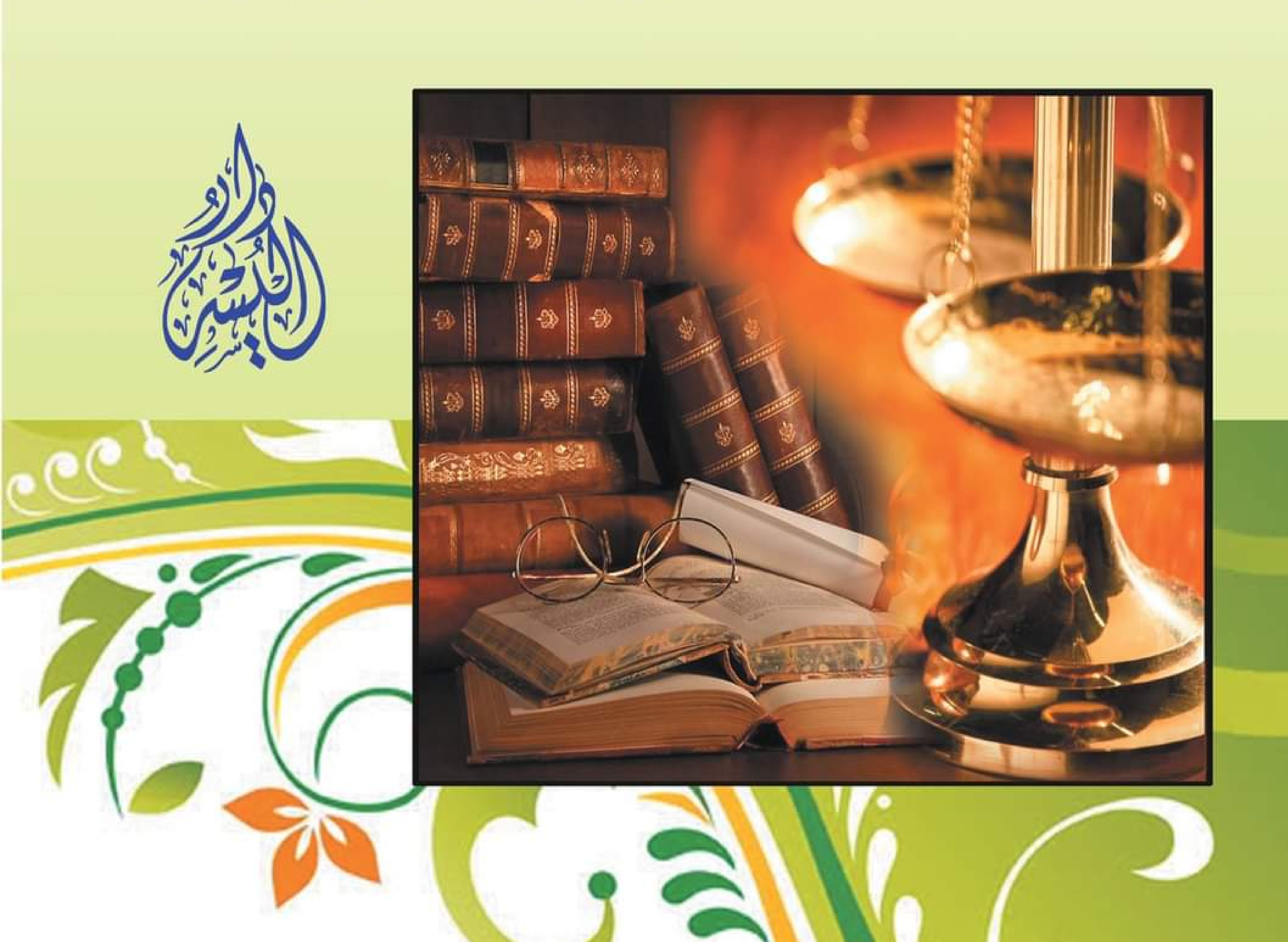
سلسلة دراسات في العقيدة والأديان

دراسات في
مقارنة الأديان

تأليف

أ.د. محمود محمد مزروعة

أستاذ العقيدة والأديان بجامعة الأزهر وأم القرى



سلسلة
دراسات في العقيدة والأديان
(١)

دراسات في
مقارنة الأديان

تأليف

الأستاذ الدكتور

محمود محمد مزروعة

أستاذ العقيدة والأديان بجامعة الأزهر وأم القرى

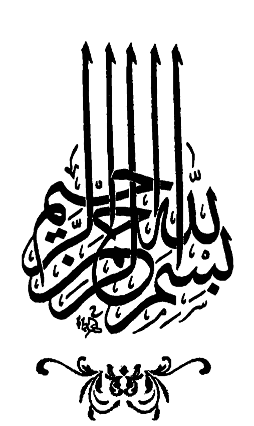
ورئيس جبهة العلماء



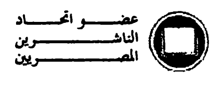


دراسات في

مقارنة الأديان







رقم الإيداع

٢٠١٥/١٤١٨٨

ترقيم دولي

978-977-794-000-9

دراسات في

مقارنة الأديان

الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

مزروعة، محمود محمد
دراسات في مقارنة الأديان
تأليف محمود محمد مزروعة
القاهرة، دار اليسر ٢٠١٥م.
١٣٥ص، ١٧سم × ٢٤سم.
تدمك ٩٧٨٩٧٧٧٩٤٠٠٠٩
١- الديانات المقارنة
أ- العنوان

٢٩١



٢٠ ش عبد العزيز عيسى ، المنطقة التاسعة ، الحي الثامن

مدينة نصر ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية

تليفون: ٠٢٢٤٧٠٩٢٦٩ محمول : ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨

فاكس : ٠٢٢٤٧١٤٨٠١ خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com

Email :alyousr@gmail.com

info@dar-alyousr.com

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى إخوانه وآله وأصحابه والتابعين.

أما بعد؛ فَفي مجال الدراسات الدينية يوجد علمان متميِّزان، هما:

١- تاريخ الأديان.

٢- مقارنة الأديان.

وكل من العلمين يمتاز عن الآخر بموضوعه والهدف من دراسته؛ فعلم «تاريخ الأديان» يُعنَى بدراسة نشأة الدين، والأطوار التي مرَّ بها، وعوامل انتشاره أو انحساره، كما يُعنَى بدارسة محتوى الدين من جوانبه النظرية والعملية، والبحث عن المصادر التي استقَى منها الدين محتواه هذا.

أما علم «مقارنة الأديان» فَيُعنَى بدراسة الأديان مقارِنًا بعضَها ببعض، سواء من حيث: نشأتها وأطوارها وعوامل انتشارها، أو من حيث: المحتوى النظري والتطبيقي، أو العقائد والأعمال، وهذا الجانب هو الأهم، وهو المقصود الأصلي.

وقد يُعنَى العلم بدراسة الجانبين جميعًا؛ جانبِ النشأة، وجانبِ المحتوى والمضمون، دراسةً تقوم على التحليل والمقارنة بين دين ودين.

واضح من ذلك أن علم «تاريخ الأديان» يقوم على دراسة دين واحد، ويمكن أن يدرس أكثر من دين، كل دين على حدة؛ فيدرس اليهودية- على سبيل المثال-، فإذا انتهى منها يمكن أن يدرس النصرانية، حتى ينتهي منها، وهكذا، فهنا الدراسة تقوم على تناول كل دين بمفرده.

أما علم «مقارنة الأديان» فتقوم دراسته على أساس من الجمع بين دينين أو أكثر، وهذه الدراسة تقوم على التحليل والمقارنة بين محتوى كلٍّ من الدينين، أو الأديان موضوع الدراسة.

ولا يمكن أن يكون الأمر على غير ذلك، فلا يمكن أن يقوم علم مقارنة الأديان على دراسة دين واحد؛ لأن هذا يدخل في باب التاريخ، وليس في باب المقارنة؛ فإن المقارنة- كما هو واضح- موازنة أو مقابلة، والموازنة أو المقارنة لا تكون إلا بين اثنين أو أكثر، ولا يمكن أن تتحقق بدراسة دين واحد؛ فإننا حين نقتصر على دين واحد فبأي شيء نقارنه؟ وأين تلك المقارنة المزعومة؟

من هنا يتضح خطأ تلك الدراسات التي تقتصر على دين واحد، تؤرِّخ له، وتوضح جوانبه، ثم يزعم أصحابها أنها مقارنة، فقد بان لنا أن هذا تاريخ، وليس مقارنة.

هذا ما بين العِلمين من تمايز في الموضوع، أما تمايزهما من حيث الهدف، أو الغاية من الدراسة؛ فإن الهدف من دراسة «تاريخ الأديان» قد يكون ضربًا من دراسة التاريخ الإنساني، والعوامل المؤثرة في مسيرة الإنسان وتوجيهه.

وقد يكون الهدف من دراسة تاريخ الأديان ضربًا من ضروب الثقافة الفكرية، القائمة على دراسة ثقافات الإنسان وحضاراته عبر مراحلها المختلفة.

وقد يكون الهدف هو البحث عن الحق وراء ذلك الرُّكام الهائل من الأديان،

التي خلَّفتها مسيرة البشرية عبر مراحلها المختلفة.

أما علم «مقارنة الأديان» فإن الهدف من دراسته هو طلب الحق، وتحرِّي الصواب، من خلال: دراسة الأديان المختلفة، وتحليل عقائدها وأعمالها ومحتواها كلِّه بصورة تفصيلية، ثم مقارنة هذه الأمور كلِّها أو بعضِها في دين بمثيلاتها في دينٍ آخَرَ، أو أديانٍ أُخَر، دراسةً تقوم على التحليل الدقيق، والمقارنة المنزَّهة عن الهوى، وتلك المقارنة لا بدَّ أن تعتمد على ميزان صحيح دقيق نستطيع به أن نميز بين الحق والباطل من محتوى الأديان، وبالتالي بين الأديان نفسِها.

على أن هنالك فريقًا من الباحثين أعمى الله أبصارهم وأضلهم على علم، كفروا بالدين كله، وعارضوه جملة وتفصيلًا، وامتلأت أنفسهم حقدًا وغلًّا على الأديان والمتدينين، وجعلوا هدفَهم وغايتهم انتقاصَ الأديان والانقضاضَ عليها، ومعاداةَ المتدينين ومنابذتهم، واتخذوا وسيلتهم إلى تحقيق أهدافهم البغيضة دراسةَ الأديان والبحثَ فيها، يستوي في ذلك لديهم تاريخُ الأديان، وتحليل عقائدها أو مقارنتها، جعلوا كل ذلك وسيلَتهم إلى الطعن في الأديان، ومحاولة إبطالها، والقضاء عليها.

وجُلُّ دعاواهم- في هذا المجال- أن الدين إنما هو ظاهرة اجتماعية، أي: أنه من وضع المجتمع، وليس وحيًا من قِبل الله تعالى؛ لأنهم لا يؤمنون بوجود إله- أصلًا- ولهم في هذا الباب أباطيلُ كثيرةٌ ولغو طويل.

وما ذهب إليه هؤلاء ليس جديدًا؛ بل هم على درب الضَّالِّين السابقين يسيرون، ويُرَدِّدون نفس الضلال والافتراء والكذب الذي ردَّده أسلافُهم المرجِفون في كل عصر.

وقد ذكر لنا القرآن الكريم أن أسلاف هؤلاء في عهد رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قالوا عن دين الله الذي يُوحَى إلى رسول الله: إنه «أساطيرُ الأولين». وهذه الدعوى هي عينُها ما يدعيه الضَّالُّون في هذا العصر دون زيادة أو نقصان.

يقول تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

هؤلاء طوائف الباحثين في الأديان، سواء في تاريخها، أو المقارنة بينها، وتلكم هي أهدافهم، ونحن لا يَعنينا- مِن هؤلاء وأولئك- إلَّا طلابُ الحقِّ الباحثون عن الهداية، المنصفون في وسائلهم وأهدافهم.

عن هؤلاء نبحث، ولهؤلاء نكتب، ومن أجلهم يَسهل كلُّ صعب، وتهون كل مشقة، دعوةً إلى الله -سبحانه- وتبليغًا لدينه، وشعاعًا من نور الهداية يضيء الطريقَ أمام مَن غلبت عليه الغواية؛ فتنكَّب طريق الرشاد.

وعِلم مقارنة الأديان من العلوم قديمةِ الموضوع والمضمون، حديثةِ التسمية والعنوان؛ فمن الأمور الواضحة- التي لا يجهلها المسلم-: أن القرآن الكريم قد تحدَّث عن كثير من الأديان، مبينًا عقائدها، وموضحًا بُطلانها.

وقد ناقش القرآن الكريم كثيرًا من العقائد الباطلة، وبيَّن مكامِنَ الخطأ ومواطِنَ الضَّلال فيها، وجادل أصحابَها بالتي هي أحسنُ، وبيَّن لهم الحقَّ، وأمرهم باتِّباعه، بعد أن بيَّن لهم الباطلَ، وأمرهم باجتنابه.

فقد تحدَّث القرآن العظيم عن عقائد المصريين القدماء، وعن تألُّه فرعونَ على قومه، وقد ناقش القرآن الكريم عقائدهم في أكثرَ مِن موضع؛ فقد ناقش يوسفُ عقائدَ القومِ في شخص المسجونَيْنِ الَّذَينِ صَحِباه في سجنه قائلًا لهما:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩- ٤٠]

ومِن بعدِ يوسفَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ جاء موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يدعو فرعونَ إلى الدين الحق، الذي يوضح الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ معالمه عن طريق أسئلةٍ مِن فرعون وإجابات مِن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، يقول تعالى:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾

[طه: ٤٩- ٥٢]

وقد تحدث القرآن الكريم -أيضًا- عن عقائد وأديان طائفة أخرى من أصحاب الحضارات القديمة، تلك الحضارة التي كانت قائمة في أرض العراق قديمًا؛ حيث كان يقطن البابليون؛ فقد بعث الله تعالى إليهم إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام مِن حجر أو بشر؛ فجاهد إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في الله جهادًا عظيمًا، وجرى بينه وبين قومه مناقشاتٌ ومجادلاتٌ كثيرةٌ، على مستويات عديدة.

منها: ما كان بينه وبين ملك القوم الذي يدَّعي الألوهية، يقول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ

﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ومنها: ما وقع بينه وبين قومه، وقد كان له عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه مواقفُ كثيرةٌ ذكر القرآن منها العديد، منها ذلك الموقف الذي لجأ فيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أسلوب مجاراة الخصم فيما يعتقد؛ ليصل من خلال ذلك إلى إبطال ما عليه قومه، وإظهار الحق ناصعًا جليًّا، يقول عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٧٤- ٨١].

ومن مواقف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه: ذلك الموقف الذي انتقل فيه من أسلوب الجدال النظري إلى أسلوب عملي يبين لهم فيه أن أصنامهم التي يعبدونها لا تملك مِن أمرِ نفسِها شيئًا، فكيف تملك أمورهم هم؟ وأنها عاجزة عن حماية نفسها، وهي عن حمايتهم أشدُّ عجزًا، يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

[الأنبياء: ٥١- ٦٧].

وقد تحدَّث القرآن الكريم عن عقائد المشركين في عهد رسول الله ﷺ -وهم مَثَلٌ واضح لأصحاب الوثنيَّات والصنميَّات في كل زمان ومكان- فمن ذلك: ما ورد في أواخر سورة الحج، يناقش المشركين ويوضح أن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله لا تستطيع أن تردَّ عن نفسها الأذى؛ فكيف تستطيع ذلك بالنسبة إليهم؟ يقول ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ

مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣- ٧٤].

ومن ذلك: ما ورد في آخر سورة «يس» يردُّ عليهم ارتيابَهم في البعث يوم القيامة، ويُقِيم لهم الدليلَ على إمكان ذلك من أنفسهم هم، ثم مما حولهم من السموات والأرض، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٧- ٨٣]

ومن ذلك: ما ورد في سورة «الزخرف» من جدال، يخاطب فيهم عقولهم، ويستند في إلزامهم الحجة إلى واقعهم الذي يعيشونه، وعاداتهم التي يلتزمونها - وإن لم تكن صحيحة- يقول ﷻ:

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ١٥].

وسنكتفي بهذا القدر من أمثلة القرآن الكريم، والتي توضح لنا تحليل عقائد المعاندين، ومجادلتهم فيها، ومقارنة باطلهم بما هو حق، مقارنةً تقوم على التحليل والتوضيح والتفصيل، بحيث يتضح بطلان ما هم عليه، كما يتضح الحق الذي ندعوهم إليه، تُبيِّن لنا أن هذه الأسس التي يقوم عليها علم «مقارنة الأديان» ليست حديثةً، ولا وليدةَ عصرٍ مِن العصور القريبة، ولا هي من إنشاء علماء الغرب، كما يدعِي الكثيرون من المستغرِبين مجاراةً للمستشرقين؛ بل هو منهج نهجه القرآن الكريم، ورغَّبَنا فيه.

ولقد ترسَّم سلفُنا- من علماء الأمة- نهجَ القرآن الكريم هذا في مجادلةِ المعاندين، وطرحِ عقائِدِهم للمناقشة والتحليل والمقارنة، ولقد وصل إلينا منهم صرحٌ ضخم من التراث القيم النافع في مجال دراسة الأديان- تاريخًا ومقارنةً.

ونحن لا نستطيع أن نحصي كلَّ ما خلَّفه هؤلاء العلماء العظام، ولكنا نملك أن نعطيَ أمثلةً تفيد العالِمَ والمتعلمَ- على سواء- وتثبت أن دراسة الأديان والتأليف فيها- بعامة- ومقارنة الأديان- بخاصة- إنما هو منهج إسلاميٌّ، وما كُتب فيه- قديمًا وحديثًا- إنما قعَّد له وراد طريقَه، ووضع منهجَه علماءُ المسلمين.

ولدينا- على سبيل المثال-: «**مقالات الإسلاميين، للأشعريِّ**»، و«**الفَرق بين الفِرق**» للبغداديِّ، و«**المِلل والنِّحل**» للشهرستانيِّ، و«**شفاء الغليل**» للجوينيِّ، و«**الرد على النصارى**» للجاحظ، و«**الآثار الباقية عن القرون الخالية**» للبيرونيِّ، و«**الفاصل بين الحق والباطل**» لأبي عبيدةَ الخزرجيِّ، و«**الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة**» للقرافيِّ، و«**الإعلام بما في دين النصارى من أوهام**» للقرطبيِّ، و«**الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحل**» لابن حزم الظاهريِّ، و«**الجواب

الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» لابن تيميةَ، و«**هداية الحيارى**» لتلميذه ابنِ القيم.

وهذه أمثلة ضئيلة لِـمَا تزخر به المكتبة الإسلامية من كتب في هذا الفن- قديمًا وحديثًا.

وعندما وُكِلَ إليَّ تدريسُ هذه المادةِ لطلاب الجامعة الإسلامية الدولية بـ(إسلام أباد) بباكستان، سجَّلتُ بعضَ أفكاري وخواطري حول أهم الموضوعات التي يتناولها علم «مقارنة الأديان»، وقد تكوَّن لديَّ- من ذلك- صفحاتٌ ظلَّت مسطورةً بخط يدي، حتى وُكِلَ إليَّ تدريسُ المادة بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بالأزهر الحارس، فطبعتُ تلك الصفحات، راجيًا أن تكون نافعة ومفيدة في بابها، داعيًا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفعَ بها، وأن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم، وأن يجعلها في موازين الكاتب والقارئ يوم القيامة.

محمود محمد مزروعة

مدينة نصر في غرة رجب ١٤٣٦هـ

الموافق ٢٠/ ٤/ ٢٠١٥م

القسم الأول

تعريف بالملل والنحل



تمهيد

نتكلم في هذا القسم بمشيئة الله ﷻ عن معنى: الدين والملة، والمذهب أو المدرسة، وهذه كلها تحتاج إلى الوقوف على المراد منها، كمقدمة ضرورية ينبني عليها الكثير من الموضوعات التي سنطرقها في ثنايا الكتاب بإذن الله -تعالى- وتوفيقه:

❁ ❁ ❁

أولًا: تعريف الدين:

في اللغة: إن لفظة (دين) في اللغة العربية من أكبر الألفاظ ثراء بالمعاني والمعلومات، ومعانيها الكثيرة جعلتها غير واضحة المعنى، أو محددة المدلول، فالباحث عن معنى هذه اللفظة يرى لها مدلولات تزيد على العشرين، هذا بالإضافة إلى أن هذه المعاني على كثرتها لا تجمع بينها جامعة ولا تؤلف بينها وحدة، بل تجد بينها الكثير من المعاني المتناقضة، فمن معانيها على سبيل المثال: أنها العز والذل، وهي الإحسان والإكراه، وهي القهر والسلطان، وهي التذلل والخضوع.

ورغم هذا التضارب في المعنى اللغوي لكلمة (دين) فإننا نستطيع أن نرد معاني هذه اللفظة في اللغة إلى استعمالات ثلاثة لا تتعدَّاها، حيث ترجع هذه المادة إلى ثلاثة أفعال أحدها يتعدى بنفسه، والثاني يتعدى باللام، والثالث يتعدى بالباء.

فالذي يتعدى بنفسه يعني الملك، والتحكم، والسيطرة، وكل ما هو من هذا

القبيل، وذلك كمثل قول الله تبارك وتعالى:

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤].

ومثل قولك: دان السيدُ خادمَه، أيَ مِلَكَه وتحكَّم فيه.

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «الكيس من دان نفسه»(١).

وأما الذي يتعدى باللام، فإنه يعني عكس المعنى السابق، يعني الخضوع والذل، والطاعة، والاستسلام، وذلك كقولك: «دنته فدان لي» أي ذل وخضع واستسلم.

وأما الذي يتعدى بالباء فإنه يعني الالتزام والاعتقاد، واتخاذ الشيء مذهبا وعقيدة، وذلك كمثل قولك: «دنت به» أي التزمت به عقيدة ومذهبا.

وجملة القول أن لفظة (دين) عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له، فإذا وصف بها الأول كانت خضوعا وانقيادا، وإذا وصف بها الآخر كانت إلزاما وسيطرة، وَحُكْمًا وأمرا، وإذا نظرنا إلى العلاقة بين الاثنين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة، والمظهر لها.

ونستطيع أن نقول إن المادة كلها تدور على معنى الإلزام، ففي الأول التزام، وفي الثاني إلزام، والثالث هو المبدأ الذي يلزم الانقياد له، أو الذي ينظم الانقياد والالتزام.

ولا يخفى أن الإلزام هو المعنى الذي تدور عليه كلمة (الدَّيْن) بالفتح -أيضًا- وأن الفرق بين (الدِّين) بالكسر و(الدَّيْن) بالفتح، هو أن الأولى تتضمن التزامًا أدبيا، والأخرى تتضمن التزامًا ماديًّا(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٢٣) والترمذي (٢٤٥٩) وقال: حديث حسن.

(٢) الدين، د. محمد عبد الله دراز. (ص٢٣-٢٤)، ط ١٩٦٢.

الكلمة عربية:

مما تقدم يتضح لنا أن كلمة (دين) عربية أصيلة، وأنه لا أساس إطلاقا للأفكار المغرضة والأقلام المأجورة التي تحاول تجريد هذه الكلمة من عربيتها، وإلحاقها بالعبرية أو الفارسية، فهذه محاولات فاشلة أمام ما رأينا من الأدلة الواضحة على أصالة اللفظة في اللغة العربية، ولقد رأينا من تصاريف هذه اللفظة، وتعدد صيغها، وتشعب استعمالاتها، ما لا يمكن إطلاقا أن يحدث للكلمات المعربة.

في الاصطلاح: ونريد بالدين الذي نتناول تعريفه هنا، الدين بوجه عام يستوي في ذلك ما كان منه حقًّا أو باطلًا، سماويًا أو وضعيًّا.

وقبل أن نذكر التعريف يحسن بنا أن نحدد العناصر الجوهرية التي تشترك فيها الأديان كلها، حتى يسهل علينا بعد ذلك تحديد التعريف الذي يقوم أساسا على هذه العناصر، ويتركب منها.

والعناصر التي تتركب منها الأديان كلها هي:

١- أن الدين يقوم على أساس علاقة بين ذات وذات، وليس بين ذات وفكرة.

٢- أن هذه الذات قد تكون محسوسة وقد تكون غير محسوسة، فليس بلازم أن تكون هذه الذات غيبية.

٣- أن هذه الذات تتصرف في مصائر الناس بقوى غيبية غير محسوسة.

٤- أن تصرفها ذلك ناتج عن مشيئة واختيار وحرية.

٥- أن هذه الذات متصلة بالبشر، وليس معزولة عنهم.

٦- أن هذا الإيمان من شأنه أن يدفع المؤمن إلى التوجه إلى هذه الذات بالطاعة والعبادة.

٧- أن هذه العبادة لها قواعد وشروط تسير على أساس منها.

هذه هي العناصر الجوهرية التي تتكون منها الأديان كلها، فلا يخلو عنها دين من الأديان.

نستطيع بعد ذلك أن نصوغ تعريفنا على الصورة التي تجمع هذه الخصائص التي ذكرناها.

والدِّين بهذا المعنى هو: الاعتقاد بوجود ذات أو ذوات، لها قوة غيبية، بها تتصرف في الطبيعة والناس، حسب مشيئتها وإرادتها، اعتقادا من شأنه أن يبعث على التوجه إليها بالطاعة والعبادة في رغبة ورهبة، حسب نواميس معينة وقواعد محددة.

❁ ❁ ❁

ثانيًا: أقسام الدين:

ينقسم الدين بصورته العامة إلى قسمين أساسين:

القسم الأول: الدين السماوي أو الإلهي ، وهو الدين الذي نزل من عند الله تبارك وتعالى على أنبيائه ورسله، -صلوات الله عليهم أجمعين-.

ومن خصائص هذا الدين أنه من عند الله وحده فلا يد لإنسان فيه، أيا كان ذلك الإنسان حتى الأنبياء والرسل أنفسهم لا دخل لهم في موضوع الدين المنزل عليهم، فكل ما يأتي به النبي إنما هو من عند الله تبارك وتعالى، يتولى تبليغه إلى الناس، دون أن يزيد فيه أو ينقص منه، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عنه ربه:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤].

على ضوء ما تقدم نستطيع أن نعرف الدين السماوي بأنه: «وحي أوحاه الله إلى أنبيائه ورسله، ليبلغوه إلى الناس كما أوحي إليهم، ليدين الناس به».

والدين السماوي واحد هو الإسلام، أرسل الله به كل رسله وأنبيائه إلى خلقه، وفي إطار هذا الدين الواحد جاءت رسالات الرسل من أمثال إبراهيم وموسى وعيسى -عليهم الصلاة والسلام-.

القسم الثاني: الدين الوضعي، وهو من وضع البشر، ومن اختراع العقل الإنساني، وعلى هذا فهو ليس وحيا من عند الله ﷻ وليس له أنبياء أو رسل، ذلك أن مهمة الأنبياء والرسل هي تلقي الوحي عن الله ﷻ، وما دام الدين الوضعي ليس وحيا من عند الله، فليس ثمة محل للأنبياء أو الرسل.

يتضح مما تقدم أن الدين الوضعي هو في حقيقته «مذهب إنساني دعا إليه بعض الناس فدان به آخرون».

❁ ❁ ❁

ثالثًا: الفرق بين الدين السماوي والوضعي:

بان لنا مما تقدم أن الفرق الجوهري بين الدين السماوي والدين الوضعي هو الأصل الذي صدر عنه هذا الدين أو ذاك.

فالدين السماوي هو الصادر عن الله ﷻ، والداعي إليه هم الأنبياء والرسل، الذين هم وسطاء بين الله والناس ، يتلقون وحي الله ﷻ ويبلغونه إلى الناس، وليس للوسطاء أدنى حظ في وضع الدين. ومهمتهم الأساسية إنما هي التبليغ والتوضيح والتبيان فقط، وحتى مهمتهم هذه التي هي التبليغ والتبيين إنما يسيرون فيها على هدي من أوامر الله وعلى أسلوب يوضحه لهم -سبحانه وتعالى- يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ:

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

ويقول تعالى:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالدين السماوي من عند الله، سواء في جوهره وموضوعه، أو في طريقة عرضه وأسلوب تبليغه.

وأما الدين الوضعي فعلى نقيض ذلك تماما، ليس من عند الله، وإنما هو من وضع البشر، في موضوعه وفي كل ما يتعلق به.

❁ ❁ ❁

رابعا: نشأة الدين الوضعي:

وقد نشأ الدين الوضعي في أساسه كمذهب خلقي أو اجتماعي، له فلسفته الخاصة التي يقوم عليها، والتي تستمد دعائمها من البيئة، وظروف المجتمع الذي نشأت فيه، ومن ثقافته النوعية، ومن مشاكله التي جاء هذا المذهب أساسًا علاجًا لها.

والمذاهب التي نشأت علاجا لمشاكل المجتمعات كثيرة لا تكاد تحصى، ولكن الأديان الوضعية التي نشأت من بين هذه المذاهب قليلة جدا، فليس كل مذهب خلقي أو اجتماعي، أو فلسفي صالحا لأن ينشأ عنه دين وضعي ، ذلك أن المذهب لكي يتحول إلى دين وضعي، لابد أن تتوفر له عوامل معينة، هذه العوامل منها ما هو ذاتي في المذهب نفسه، ومنها ما هو متعلق بظروف الناس الذين نشأ المذهب بينهم.

أما من حيث العوامل الذاتية في المذهب، فمن أهمها:

١- أن تلمس تعاليم المذهب من الناس أدق أحاسيسهم.

٢- وأن تكون هذه التعاليم ذات صلة موضوعية بواقع حياتهم.

٣- وأن تهتم بهذا الواقع فتعالج فيه أهم مشكلاته، وبخاصة ما يتصل بالجانب النفسي للأفراد.

٤- وأن تتصف تعاليمه بالإلزام القوي وأن تكون محددة وحاسمة.

٥- وأن تحتوي على الجزاء ثوابا وعقابا، تبشيرا لمن يسير عليها وإنذارا لمن يخالفها.

هذا فيما يختص بالجانب الذاتي في المذاهب.

وأما فيما يختص بأفراد المجتمع الذين نشأ المذهب بينهم، فيجب أن يكون لديهم استعدادٌ لإعتناق هذا المذهب ديناً وهذا الاستعداد ينشأ نتيجة الخواء العقدي، والتخبط الديني لدى هؤلاء الأفراد، ومن المعروف أن التدين غريزة من أقوى الغرائز لدى الإنسان، وأن الإنسان لا يمكن أن يحيا دون أن يشبع هذه الغرائز، فإذا ما صادف مذهب من المذاهب التي توافرت فيها العوامل الذاتية التي أوضحناها، فراغاً عقدياً لدى فئة من الناس، فإنه يتحول لديهم إلى دين يعتنقونه، ويكون العامل الأكبر في اعتناقهم له ليس صلاحه كدين بقدر ما هو حاجتهم إلى ما يشبع غريزة التدين عندهم، وذلك كإنسان اشتدَّ به الظمأ، ولم يجد ما يطفئ غُلَّته إلا ماء قد فسد منه اللون والطعم والرائحة، فهو يتجرعه ولا يكاد يسيغه، وهو حين يتجرعه لا يفعل ذلك لصلاح الماء، ولكن لحاجته الملحة إلى أن يطفئ ظمأه. فاعتناق الناس الأديان الوضعية نشأ أساساً نتيجة افتقاد الناس الدين السماوي النقي الصالح الذي يملأ هذا الجانب الأهم من جوانب حياتهم.

وتاريخ الأديان شاهد صدق على ذلك، فلم ينشأ دين وضعي أبداً في صحوة من دين سماوي، وإنما كانت تنشأ هذه الأديان إما على فترة من الأديان السماوية. وإما في فترات ضعف هذه الأديان السماوية نتيجة تحريف الإنسان لها، وتبديله إياها.

لكل هذا- ومصداقًا له- ونرى أن الأديان الوضعية الموجودة الآن قد نشأت كلها قبل الإسلام، وأنه منذ بعث محمد ﷺ بالإسلام، لم ينشأ دين وضعي واحد، بل لقد توقف انتشار هذه الأديان وانزوت في كهوفها ذلك لأن الإسلام هو دين الفطرة، الذي تميل إليه النفس بمقتضى فطرتها وطبيعتها، هذا بالإضافة إلى أن الله تبارك وتعالى قد حفظ رسالة محمد -ﷺ- من التغيير والتبديل، لهذا، ولأن الإسلام هو دين الله الذي تجد فيه كل نفس ما يتفق وما فطرها الله عليه، فإن الأديان الوضعية قد أضحت تاريخاً يدرس، وعلامة يتطلع إليها الدارسون فيلمحون فيها صوراً من انحطاط العقل البشري في بعض مراحله، وإن كانت هذه الصورة تقوم دليلاً من أقوى الأدلة على أصالة دافع التدين في فطرة الإنسان وطبيعته حتى ليبحث عنه في متاهات الخطأ حين لا يسعفه ما يهديه إلى طريق الصواب.

❁ ❁ ❁

خامسًا: المذهب:

تكلمنا فيما سبق عن الدين بقسميه السماوي والوضعي، وننتقل الآن إلى الكلام عن المذهب والمدرسة ، والكلام عن المذاهب أمر هام وضروري لمعرفة الفارق بين الأديان بقسميها،وما يشيع في المجتمعات من نزعات ومذاهب، منها ما هو اجتماعي، أو سياسي أو اقتصادي إلخ، هذه المذاهب والنزعات التي تشارك مع الأديان في توجيه حياة الناس والتحكم في سلوكهم وكل ما يصدر عنهم من تصرفات، وهذا هو السبب الذي جعلنا نقرن الكلام عن الأديان بالكلام عن المذاهب، من حيث إن تصرفات الناس أو سلوكهم إنما يصدر متأثراً بالمذاهب والأديان جميعاً، فكان احتمال الخلط بين هذه وتلك قوياً، ولذلك رأينا أن نتكلم عن الفارق بينهما منعاً لذلك الخلط.

ولكي نعرف الفرق بين الأديان والمذاهب يجب أن ندرس ما يحدث عندما يقع الإنسان على فكرة معينة تعرض له أو تعرض عليه.

والذي يحدث أن الفكرة عندما تعرض للإنسان تحل منه مباشرة في مجال العقل، وهذه المرحلة التي تحل فيها الأفكار في عقل الإنسان مرحلة عامة، يمر بها كل ما يعرض للإنسان من أفكار، سواء في ذلك ما يتعلق بالأديان، وما يتعلق بالمذاهب والنزعات.

وبعد هذه المرحلة العامة، تأتي المرحلة الخاصة، وفيها تتحول الفكرة إلى عقيدة، وتحل من الإنسان قلبه بعد عقله.

ونزيد الأمر إيضاحاً فنقول: إن الإنسان حين تعرض له فكرة فإنه ينزلها في عقله منزلة البحث والتمحيص، ثم يديرها بين الرفض والقبول، وحين يقتنع الإنسان بالفكرة، فإنه يلتزم بها، ويتخذها مذهباً له، يسير عليه، ويتصرف انطلاقاً منه، وذلك هو المذهب، أو المدرسة.

أما إذا توافر للفكر أمر ثان فوق مجرد الاقتناع، وهو كونها تعالج مسائل ما وراء الطبيعة، كالخلق والإحياء، والموت والإفناء، والبعث والجزاء، وما هو من هذا القبيل، فإن الفكرة هنا تنتقل إلى مرحلة جديدة فتحل من الإنسان في مجال القلب بعد أن كانت في مجال العقل، وبدلًا من أن تظل فكرة في مجال العقل تصير عقيدة في مجال القلب وهنا تكون الفكرة قد تحولت إلى دين.

فالمذهب إذن هو فكرة عرضت للإنسان، تعالج أمرًا سياسيًا، أو اقتصاديًا، أو اجتماعياً، فاقتنع بها الإنسان وسار عليها، وعالج على أساس منها ما يعرض له من أمور سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، وذلك مثل المذاهب الرأسمالية، والاشتراكية، والشيوعية.

أما الدين فهو في أساسه فكرة، أو جملة أفكار، تعالج بالإضافة إلى النواحي التي تعالجها المذاهب، مسائل ما وراء الطبيعة كالخلق، والبعث والجزاء .

وهذه الأفكار إذا تقبلها الإنسان واقتنع بها، وَحلَّتْ منه في قلبه بعد عقله، فأضحت عقيدة محلها القلب، بعد أن كانت أولا فكرة محلها العقل، وكل الأديان على ذلك، صحيحها وباطلها على سواء.

وعندما عرض سيدنا رسول الله ﷺ الإسلام على أبي بكر رضي الله عنه فإنما كان يعرض عليه أفكاراً محددة، تعالج أموراً معينة، ولا ريب أن أبا بكر وزن هذه الأفكار بعقله، واقتنع بها لاعتبارات عنده توجب الاقتناع وتؤدي إلى اليقين، ثم تحولت هذه الأفكار من عقله إلى عقيدة راسخة في قلبه.

من هنا يتضح لنا أن الفرق الجوهري بين الأديان والمذاهب، أن الدين عقيدة راسخة في القلب، فهو بدأ فكرة محلها العقل، ثم تخطى هذه المرحلة إلى مرحلة أعمق وأرسخ حين تحول من فكرة محلها العقل، إلى عقيدة محلها القلب.

وهذا هو السبب الذي جعل العقل في الإسلام هو مناط التكليف، فالإسلام لا يكلف به إلا من كان عاقلاً بالغًا، أما العقل فلوزن القضايا الإيمانية قبل اعتناقها، فلا يقبلها كالأصم الأعمى، ولكن عن عقل وتدبّرٍ، من هنا كان من علامات عباد الرحمن في الكتاب الكريم قوله -تعالى-:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣].

ولو كان المطلوب اعتناق الدين وقضاياه ابتداء في القلب دون تمحيص ذلك بالعقل لكانت الآية على غير ذلك، لكن هنا كلام العليم الخبير.

أما المذهب فهو فكرة وقفت عند حد الاقتناع العقلي بها، ولم تتخط هذه المرحلة.

❁ ❁ ❁

سادسًا: الدين بين الوحدة والكثرة:

أشرنا فيما سبق إلى أن الدين في عمومه ينقسم إلى قسمين:

١- دين سماوي.

٢- دين وضعي.

ونتناول هنا الكلام عن هذين القسمين من حيث الوحدة والكثرة، فالدين الوضعي يتعدد ويتكثر، وذلك أمر طبعي، فالدين الوضعي نشأ أساسا نتيجة أفكار بشرية، فهو ابن العقل الإنساني، والعقل في الإنسان يختلف من فرد إلى فرد، ومن أمة إلى أمة، يختلف من حيث الزمان، ومن حيث المكان، فكان من الطَّبَعِيِّ أن تختلف معطياته من مذاهب، وأفكار، وآراء، ثم من أديان وضعية.

أما الدين السماوي فهو صادر من عند الله الواحد -سبحانه وتعالى- لذا كان من الطبعي أن يكون هذا الدين واحداً، وإن كثر المرسلون به، وتعدد الداعون إليه، وكثرت الكتب الحاملة إياه.

هذا الدين الواحد هو الإسلام.

فالإسلام هو دين الله من يوم أن خلق الأرض ومن عليها، حتى يرثها ومن عليها.

لا مجوسية، ولا يهودية، ولا نصرانية، وإنما الإسلام، والإسلام فقط.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالإسلام هو دين الله الذي ارتضاه لعباده، وبعث جميع رسله مؤمنين به، داعين إليه.

ولقد كان آدم مسلمًا، وكان نوح مسلمًا يدعو إلى الإسلام، وكان إبراهيم

مسلما يدعو إلى الإسلام، وكان موسى كذلك، وكان عيسى كذلك، وكذلك كان محمد عليه وعليهم جميعا صلوات الله وسلامه.

فهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام، يتجهان إلى ربهما مبتهلين:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

ويأخذ الخليل العهد على أبنائه أن يظلوا من بعده مسلمين:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وهذا يعقوب أو إسرائيل الذين يدعى اليهود أنهم أتباعه، لم يكن يهوديا ولم يكن يدعو إلى يهودية، وإنما كان مسلما يدعو إلى الإسلام، ويوصى أبناءه من بعده أن يكونوا مسلمين.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٣].

وهذا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مسلم يدعو ربه أن يختم له بالإسلام.

فيبتهل إلى ربه قائلًا:

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مسلم يدعو إلى الإسلام، فيستجيب له السحرة ويبتهلون إلى ربهم قائلين:

﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وهذه بلقيس لما رأت نعمة الله وعظيم فضله على سليمان، هتفت قائلة:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وهذا عيسى ابن مريم عليه السلام الذي ينتسب إليه النصارى، لم يكن نصرانيا يدعو إلى نصرانية، ولم يأت بدين جديد ليسمَّى باسمه فيقال: المسيحية، وإنما المسيح مسلم جاء يدعو إلى الإسلام، فيستجيب له الحواريون ويشهدونه على إسلامهم.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وهذا خاتم الأنبياء محمد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يقول له ربه:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وإذا كان دين الله واحدا هو الإسلام، فما أشد كذب هؤلاء الذين ينسبون أنبياء الله إلى اليهودية أو النصرانية، في حين أنهم جميعا مسلمون:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٠].

فليس في الأنبياء يهودي، ولا نصراني، وإنما هم جميعا مسلمون: أنزل الله عليهم الإسلام ليؤمنوا به، ويدعو إليه:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

هذه الوحدة في دين الله، على تعدُّد مراحل الدعوة إليه، وبصحبة جميع الداعين إليه يعبر عنها الله تبارك وتعالى في قوله:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

❁ ❁ ❁

سابعًا: رسالة محمد ﷺ هي الإسلام:

أوضحنا فيما سبق أن رسالات الله التي جاءت من قبل الله -تعالى- هي الإسلام، وأن كل الأنبياء إنما جاءوا يدعون الناس إلى هذا الدين - الإسلام-.

إلا أن الإسلام أضحى الآن وقفاً على رسالة خاتم الأنبياء محمد -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- ذلك أن رسالة محمد -ﷺ- قد جاءت فورثت الرسالات السابقة، وهيمنت عليها وأصبحت هي وحدها دين الله الحق الذي لا دين سواه، والذي يتحتم على كل صاحب دين من يهودية أو نصرانية، أن يترك دينه ويدين بهذا الدين الخاتم، ويسلم له، ويسير تحت كنفه، فإن محمدا خاتم الأنبياء، فلا نبي بعده، ورسالته خاتمة الرسالات فلا رسالة بعدها.

يقول الله تعالى:

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٤٨]

وكذلك لأن رسالة محمد -ﷺ- هي الدين الكامل الذي أراده الله للبشرية من يوم أن خلق الأرض ومن عليها، وإنما جاءت هذه الرسالةُ أخيرةً لأن الفترة السابقة عليها من تاريخ البشرية كانت بمثابة تمهيد لها، وإرهاص بها، وإنما كانت الرسالات السابقة هي الممهدة لها، المبشرة بها، وعندما كمل رشد الإنسانية،

وأصبحت قادرة على تلقي الدين كاملًا، وحمل الأمانة مستوفاة، أكمل الله لها الدين، وأتم عليها النعمة وأنزل الله على خاتم أنبيائه ورسوله قوله -تعالى-:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

لهذا وجه الله تعالى الخطاب لأهل الكتاب جميعًا من يهود ونصارى، يحضهم على ترك ما هم عليه، واتباع ما جاء به خاتم الرسل -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مبينًا لهم أنه لا عذر لهم في ترك رسالة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والتمسك بما هم عليه يقول -تعالى-: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

❁ ❁ ❁

ثامنًا: العقيدة والشريعة:

يشتمل الدين السماوي على عقيدة وشريعة:

أما العقيدة فهي الجانب النظري في الدين، وهي جوهره وأساسه، وهي القاسم المشترك بين كل ما جاء من قبل الله -تعالى- من رسالات، وهي عنصر الوحدة في هذه الرسالات.

والعقيدة في دين الله تنبني على ستة أسس هي:

١- الإيمان بالله.

٢- وملائكته.

٣- وكتبه.

٤- ورسله.

٥- واليوم الآخر.

٦- والقدر.

وهذه الأسس واحدة في دين الله على اختلاف مراحل نزوله، فنوح -عَلَيْهِ السَّلَامُ- جاء يدعو إلى الإيمان بهذه الأسس، وإبراهيم كذلك، والدين الذي جاء يدعو إليه موسى وعيسى عليهما السلام، ينبني في عقيدته على نفس هذه الأسس بلا زيادة أو نقصان.

يقول الله -تبارك وتعالى- مشيرا إلى هذه الأسس في آية البر:

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ويقول -تبارك وتعالى- مشيرا إلى أن ما نزل من عنده من دين، على يد الكثيرين من الرسل إنما يقوم على أسس واحدة، وجوهره واحد، وحقيقته لا تختلف من نبي إلى نبي وأن كل الأنبياء إنما نزل عليهم دين واحد.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

أما الشريعة فهي الجانب العملي في الدين، وهي فرع عن العقيدة.

وهذه تختلف في رسالات الله من نبي إلى نبي، ومن أمة إلى أمة، يقول الله ﷻ مشيرًا إلى اختلاف الشريعة من رسول إلى رسول ومن أمة إلى أمة:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وهذا الاختلاف في الشريعة لم ينتج عن ضرورة ذاتية في الدين نفسه، ولكنه أتى نتيجة لظروف الأقوام الذين نزل عليهم هذا الدين، ونتيجة لاختلاف هذه الظروف، فلقد كانت البشرية في أول عهدها ساذجة، لا تستطيع أن تتلقي الدين كاملا، أو تحمل الأمانة مستوفاة، ولذلك كان من رحمة الله أن ينزل على كل أمة من الشريعةما تطيق، وأن يكلِّفها من الأعمال ما يتفق مع ظروفها، وما يتواءم مع ما وصلت إليه من كمال.

وسار أمر الشريعة على هذا المنوال، كلما بعث رسول نزل عليه من الشريعة قدرٌ أكمل وأتم من الشريعة السابقة، وما زال هذا أمر الشريعة، تسير قُدُمًا في طريق الكمال، كلما اقتربت الإنسانية من كمال رشدها، حتى جاء الوقت الذي وصلت فيه الإنسانية أوج كمالها ، فبعث الله إليها بخاتم رسله ومعه أكمل الشرائع وأتمها، وأشملها وأعمها، بعث الله محمدا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بشريعة الإسلام، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد أشار الرسول الكريم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلى جملة العقيدة والشريعة في حديثه الصحيح، عندما أتاه جبريل -عَلَيْهِ السَّلَامُ- في صورة رجل، وجلس أمام الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وسأله عدة أسئلة تناول فيها العقيدة والشريعة معا.

فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر» قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»، قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].



(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٧).

القسم الثاني

المدخل إلى مقارنة الأديان





الميزان

قبلَ أن ندخل في مجال المقارنة بين الأديان في قضاياها الكبرى، وبخاصة قضايا العقيدة، من حيثُ إن القضايا العقدية هي أصل الدين، وهي الأساس الذي يقوم عليه كلُّ دين، نقول- قبل أن ندخل إلى مجال المقارنة والموازنة-: يجب علينا أن نبحث عن الميزان أو المقياس الذي سوف نعتمده في مقارناتنا بين الأديان، وموازناتنا لعقائدها المختلفة، وقضاياها العديدة.

والعثور على ذلك الميزان واعتماده معيارًا للمقارنة أمرٌ بالغ الأهمية، واعتماد ذلك في بداية البحث- وقبل أن نخطو فيه- أمرٌ ضروريٌّ؛ فإننا قبلَ أن نزنَ الأمور يجب أن نعثرَ على الميزان أو الآلة التي نزنُ بها.

والميزان الذي نبحث عنه يجب أن تتوفَّر فيه شرائطُ عِدَّةً، أهمُّها ما يلي:

١- أن يكون صالحًا؛ لأن توزن به الأمور الدينية، وهي أمور مجرَّدات في أصولها.

٢- أن يكون ميزانًا عامًّا شاملًا، لا يختص بدين دون آخَرَ، أو بقوم دون سواهم.

٣- أن يكون في تناول الباحث وفي إمكانه؛ فلا نطلب من الباحث المستحيل، ولا نكلفه من أمره شططًا.

٤- أن يكون واضحَ الحقائق، سهلَ المبادئ، بعيدًا عن التعقيدات النظرية التي تُثير الجدلَ، وتَبعد عن الحقيقة، وبمعنى آخَرَ: أن يكون مُسَلَّمًا من الجميع، أو من شأنه أن يكون كذلك.

٥- ينبني على ذلك: أن يكونَ ميزانًا ملزِمًا للجميع؛ فلا يعارِض فيه منصف، ولا يرفضه إلا جاحد معاند، والمعاندون في غير حق لا وزن لهم.

وقد اجتهد الباحثون محاولين التوصلَ إلى ميزان تتوفر فيه تلك الشرائط التي أشرنا إليها- مع اختلاف بين الباحثين في تلك الشرائط- فاختلفوا في طرائق البحث، ثم اختلفوا في النتائج التي توصَّلوا إليها.

فبعض الباحثين انقطعت به السبيل، فيئس من وجود ذلك الميزان، فاعتمد عقله ووجدانه ميزانًا، وأخذ يبحث ويقارن بين الأديان معتمدًا على ذلك الميزان، معتبرًا عقله ووجدانه ميزانًا ملزِمًا للجميع.

وليس بخافٍ بطلانُ ذلك المنهجِ الذي يعتمد على وجهة نظر شخصية بحتة؛ إذ كل إنسان يستطيع أن يزعمَ لنفسه ما زعم هؤلاء لأنفسهم[١].

والبعض الآخر وصل إلى مقاييسَ وموازينَ، لكنَّ تلك المقاييس- على اختلافها وتعددها- لم تتوفر لها تلك الشرائطُ التي ذكرناها- كلها أو بعضها-،

---

(١) من هؤلاء: جمهرةُ الباحثين في هذا المجال- مقارنةِ الأديان- وجُلُّ البحوثِ والمؤلَّفات التي كُتبت فيه؛ فهؤلاء لا يعتمدون ميزانًا للمقارنة، ولا يبدو عليهم أنهم يهتمون لذلك؛ بل يحللون القضايا ويبحثونها، ثم يُصدرون أحكامهم انطلاقًا من عقائدهم وما يدينون. وفوق أن بحوث هؤلاء قد تكون أَدْخَلَ في مجال «تاريخ الأديان»؛ فإنها غير ملزِمة لأصحاب الملل الأخرى، بناءً على أنها قامت على موازينَ شخصيةٍ لا يُقِرُّها إلا صاحبُها، ومثل هذه البحوث قد تكون مفيدةً لصاحبها ومَن على دينه.

ومن ثم كانت غيرَ وافيةٍ بالغرض ... فهؤلاء وأولئك...

ونحن حين نستعرض الأمور المتاحة التي يمكن أن يتكوَّن منها ميزان توزن به العقائد الدينية ليتضح الحق من الباطل، ويمتاز الطيب عن الخبيث؛ فإنا نجد هذه الأمور تنحصر في أمرين أَصْلِيَّيْن، وأمرٍ ثالث مساعد، وسوف ننظر في هذه الأمور- واحدًا بعدَ واحدٍ- لنرى ما لها وما عليها، متى تصلح، ومتى لا تصلح، والله المستعان.





العقل

والعقل أيًّا كان تعريفه؛ فهو القدرة المميِّزة المدرِكة التي منحها الله -تعالى- الإنسانَ ليميزَ بها بين الخبيث والطيب، ويدركَ بها الخير والشر، فتدفعه إلى الخير، وتعقله عن الشر.

لكنَّ العقلَ- في أصله- استعداد يتلقى المعقولات من الخارج فيدركها، ويختزنها، ويوجِّه الإنسانَ انطلاقًا منها؛ فالعقل- إذن- صنعة العالم الخارجي، يتلقى عنه، ويتأثر به، وينفعل به فيما يصدر عنه من أحكام، ومن هنا كان حقًّا ما قيل: إن العقل ابن بيئته. ولئن كانت هذه العبارة غيرَ صادقة على إطلاقها، فهي صادقة في الأعمِّ الأغلبِ، وبخاصة فيما يتصل بجانب المعتقدات والوجدانيات التي تتسرب إلى الإنسان منذ مولده في غيبة مِن عقله، فلا يكاد يبلغ رشده وتكتمل فيه القوة المميزة العاقلة حتى يكون قد أضحى أسيرَ المعتقدات والانتماءات الوجدانية الشائعة في بيئته، ويصبح غيرَ قادرٍ على الخروج عليها، أو الانفلات منها؛ لأنها تكون قد تمكنت من قلبه وضربت بجذورها في وجدانه،

قبل أن تكتمل فيه القوة التي بها يميز بين الحق والباطل أو الخير والشر.

ولعلَّ هذا يفسر لنا ذلك الأمرَ الذي يبدو عجيبًا، فحين نرى الرجلَ قد بلغ من الذكاء وقوة الفهم مبلغًا عظيمًا- حتى ليشتهر بين الناس بقوة الفهم وشدة الذكاء- ورغم ذلك نجده يعتنق من المعتقدات ما هو واضح السقوط، بدهِيُّ البطلان بكل المقاييس، ويفسر لنا- أيضًا- تعصب أصحاب الأديان الباطلة لأديانهم، رغم وضوح بطلانها، وظهور الحق في غيرها.

يتضح مما تقدم أن العقل- على إطلاقه- لا يصلح مقياسًا نقيس به الأديان، ونقيم على أساس منه علم مقارنة الأديان، وقد يصلح مع شروط وتحفظات نبينهما فيما بعد بحول الله تعالى.





الفطرة

نأتي بعد ذلك إلى الفطرة الإنسانية، أو تلك القوة المدرِكة المميِّزة التي تأتي في المرتبة الأولى من قوى الإنسان الهادية المميزة، ويفرق بينها وبين القوة العاقلة، بأن القوة العاقلة تبني أحكامها على أسباب واضحة جليَّة، وتصدر عن حجج وأدلة برهانية، وأمَّا القوة الوجدانية فتدرك وتميز وتصدر أحكامها بشكل مبهم غير واضح غالبًا، ولا تخضع أحكامُها لأسبابٍ جليَّةٍ، أو براهينَ منطقيةٍ.

وقد يستقيم العقل مع الفطرة، وقد يتعارضان، بأن يقنع العقل بأمر ما بناء على أسباب وخطط واضحة، لكن الإنسان رغم ذلك يكون منقبضَ النفس، ضيِّقَ الصدر، رافضًا لذلك الذي رضيه عقلُه، وعلى كل حال فإن الفطرة هي النور الربانيُّ، والسرُّ الإلهيُّ الذي فطر الله تعالى الإنسانَ عليه، وإذا استقام في الإنسان وسلك الإنسان على مقتضاه، عرف ربه، وأدرك الخير وأحبه ولزمه، وأدرك الشر ومقته واجتنبه.

لكنَّ الفطرة السوية قد لوَّثها الوسواس الخناس- وما يزال- لوَّثها في الآباءِ،

وتولى الآباءُ نقلَ جرثومة الفساد والضلال إلى الأبناء، فانتشر الفساد، وعم الضلال مجتمع الإنسان، إلا مَن رحم اللهُ، وقليل ما هم، بل أقلُّ من القليل هم في هذا الزمان.

يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -إشارةً إلى المعنى الذي ذكرناه-: «**كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ، فأبواه يُهوِّدانِه، أو يُنَصِّرَانِه، أو يُمجِّسانِهِ...**»[1] الحديث.

وواضح أن المراد بالفطرة- في الحديث- هو الدين الحق، الإسلام، بدليل مقابلتها بالأديان الباطلة، فالأبوان أفسدا فطرة الأبناء، والذي أفسد فطرة الأبوين هم آباؤهم، وهكذا حتى نصل إلى جرثومة الفساد، وهو الشيطان، الذي بدأ العمل بنفسه، ثم جنَّد له جنودًا من الـجِنَّة والناس.

يقول الله سبحانه إشارة إلى أنه -تعالى- أقام فطرة الإنسان على مقتضى دينه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم ٣٠] فالله- سبحانه- قد فطر الناس على مقتضى دينه الحق، ولكن الشيطان أضل الناس وأفسد فطرهم، كما يوضح الحديث الشريف.

والفطرة بهذا المعنى لا تصلح - على إطلاقها - ميزانًا توزن به الأديان، أو فيصلًا بين حقها وباطلها، وقد تصلح ولكن ليس على إطلاقها؛ بل لا بدَّ من تحفظات وشروط نحترز بها من فساد الفطرة، حتى نستطيعَ أن نستعينَ بها في هذا المجال، وهذه التحفُّظات نذكرها في حينها- إن شاء الله- تعالى-.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥) و مسلم (٢٦٥٨).



التجــرُّد

نأتي بعد ذلك إلى الأمر الثالث الذي أشرنا إليه قبلًا، وقلنا: إنه ليس أصلًا كالعقل والفطرة، بل هو أمرٌ مساعِد لكليهما، يعين كلًّا منهما على البحث والتحليل وإدراك الحقِّ بعيدًا عن عوامل التعصب الأعمى، والهوى المضِل، وهذا العامل حقيق- إذا أُحْسِنَ الأخذُ به- أن يُخرجَ الباحثَ من مجال التبرير المتكلَّف لما يعتنق، إلى مجال البحث الصادق عن الحق والإقرار به، ولو كان على خلاف معتقده وما يدين.

ونعني بذلك عامل «التجرد»، ويُراد به أن يتجرَّد الباحثُ تجرُّدًا كاملًا عن التعصب لعقيدته وجنسه وكل انتماءاته جُملةً، ثم يبدأ بحثه بعيدًا عن تلك العوامل التي تؤثر في نظرته إلى الأمور، وتقويمه إيَّاها، وبالتالي في أحكامه التي يُصدرها.

وحينما نادى بمنهج التجرد قومٌ من الغرب منذ وقت ليس بالبعيد، احتفل الكثيرون بالمنهج وواضعيه، أو مكتشفيه بالمعنى الصحيح، وأشادوا به وأهله، ظانِّين أن المشكلاتِ كلَّها قد حُلَّتْ باكتشاف ذلك المنهج، وأن الحقائق أضحت- بواسطته- واضحةَ الملامح ناصعةَ الجبين.

وقد أخطأ هؤلاء خطأين:

الأول: أن المنهج قديم وليس حديثًا- كما يظن واضعوه ومؤيدوه-؛ فلقد جاء القرآن الكريم بذلك المنهج منذ ما يزيد على أربعةَ عشرَ قرنًا مِن الزمان، ولقد تضمَّن القرآن الكريم مستوياتٍ عدةً لذلك المنهج.

منها: ما يتصل بالدين وتقرير ما هو حق منه، وما هو باطل، من ذلك: ما وجَّهه الله تعالى لكفار قريش حين طلب منهم النظرَ فيما أتى به رسولُه ﷺ نظرًا يقوم على التجرُّد في طلب الحق، بعيدًا عن أهوائهم، وما يُكِنُّون لرسول الله ﷺ من أحقادٍ وضغائنَ؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

ومنها: ما يتصل بالفروع في إطار الدين الحق، ومن ذلك: ما خاطب به الله تعالى المؤمنين أن يتجرَّدوا في القضاء على الناس- شهادةً أو حكمًا-، فلا يميل بهم عن الحق حبٌّ أو بغضٌ؛ يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وهذا المنهج الذي جاء به القرآن الكريم هو المنهج الذي يناسب طبيعة الإنسان، ولا يفوق إمكاناته، وسنوضح ذلك فيما يلي، بحول الله تعالى.

الثاني: وقد أخطأ هؤلاء مرة ثانية حين طلبوا أمرًا هو فوق طبيعة الإنسان،

وقصدوا منه شيئًا يفوق إمكاناته، فبدهيٌّ أن الإنسان لا يستطيع أن ينبذ دينَه ومعتقدَه وجنسَه وانتماءاتِه كلَّها في لحظة ليبحث قضية ما، فإذا ما انتهى من بحثه استردَّ ذلك جملة واحدة؛ فدينُ المرءِ وقومُه ووطنُه وميراثُه كلُّه ليس قميصًا يخلعه حين يشاء ويلبسه حين يريد، كذلك من الأمور غير المقبولة أو المعقولة: أن يُطلَبَ من الباحث- إذا ما أراد أن يبحث الأديان الأخرى- أن يطرح دينه جانبًا، ويتخلَّى عن معتقده، وقد عرفنا أن ذلك عسير أشدَّ العسر، صعب غايةَ الصعوبة.

وقد بيَّن لنا القرآن الكريم أن الكفار قد عجزوا عن تركِ دينهم- وهم يدركون بطلانه- وعجزوا عن اعتناق الدين الحقِّ- وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم- يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ونحن- بطبيعة الحال- لا نُقِرُّ تلك العصبيةَ الجاهلية للباطل ضدَّ الحق، ونُدين أصحابها الذين عرفوا الهدى فاختاروا الضلالةَ عليه؛ فكانوا من الذين أضلَّهم الله على علم، ولكننا لا نُغفل الأماراتِ الواضحةَ الدَّالَّةَ على مدى صعوبة التخلي عن الدين والمعتقد.

أما ما جاء به القرآن الكريم في منهج التجرُّد، حين طلب القرآن الكريم من كفار قريش أن يحكموا في شأن محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما جاء به متجرِّدين عن الهوى؛ فإن القرآن العظيم لم يطلب من الكفار أن يَدَعوا نظامًا معقَّدًا ليحتكموا إلى نظام

مثله؛ ولكنه طلب منهم أن يحتكموا إلى مسلَّمات العقلِ وبَدَهِيَّات الفطرة.

والإنسان العاقل من شأنه أن يقف عند حدود المسلَّمات والبدهيات؛ فيلتزم أحكامَها ولا يجادل فيها، ومن المسلَّمات- عقلًا وفطرةً-: التجريبيات التي وصل إليها القومُ في شأن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مدى يزيد على الأربعين عامًا؛ فلقد عرفوه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صادقًا لا يَكذب، أمينًا لا يخون، والمعرفة التي تنبني على مثل هذا القدر من التجربة من شأنها أن تُكسبَ اليقينَ، وأن تقطعَ عناد المعاندين.

وهذا هو الذي حدا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُحرِّكَ في الناس هذا اليقينَ التجريبيَّ، ويلفتهم إلى تلك الحقيقة التي لا يماري فيها أحد منهم، وذلك في اللحظة التي عزم على إبلاغهم دعوته؛ فقال لهم «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1].



---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٠) ومسلم (٢٠٨).



الميزان المختار

هذه الثلاثة التي سبق الكلام عنها- العقل والفطرة والتجرد- هي ما يدور الباحثون في فلكها، بحثًا عن ميزان مأمون معتبَر، يقارنون في ضوئه الأديان، ويَزِنون العقائدَ، وقد اختلف الباحثون فيما بينهم اختلافاتٍ كثيرةً حول الميزان نفسه، وحول الضمانات والشروط التي تجب مراعاتها حتى لا يحيد الميزان عن الحق، وما دمنا قد وضعنا أنفسنا في ذلك المجال؛ فلا مفرَّ من أن ندلي بدلونا مستعينين بالله، وهو المستعان - سبحانه-.

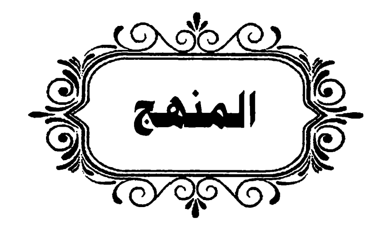
وفي ضوء الدراسة التحليلية الموجزة التي قدمناها عن كل من هذه الثلاثة، نستطيع أن نقرِّرَ أن كل واحد من الثلاثة لا يصلح منفردًا، كذلك لا يصلح على إطلاقه. لا بدَّ- إذن- مِن جمعِ الثلاثة معًا، كذلك لا بدَّ مِن وضعِ التحفظات التي تضمن إنتاجها والاستفادة منها؛ فالميزان- في رأينا- يمكن أن يصاغ من الثلاثة متعاونين؛ فالعقل والفطرة يصلحان، ولكن مع تأثُّرِهما بالبيئة وما يشيع فيها من

مؤثِّرات متعددة تجعل من العسير أن تلتقيَ العقولُ والفِطَرُ لدى الناس في النظريات على كلمة سواء؛ فإن الاستفادة والأمان بالنسبة إلى العقل والفطرة إنما يكمن في المسلَّمات والأوَّلِيَّات التي لا يقع فيها الجدال والمشاحنة، ثم إن الضمان لنجاح هذين -العقل والفطرة- إنما يكمن في الأمر الثالث، وهو التجرُّد للحق، طلبًا له، وبحثًا عنه، ورغبةً فيه، وحرصًا عليه، بعيدًا عن الهوى.

الميزان الذي نراه- إذن- يقوم على العقل والفطرة في المسلَّمات والأوَّلِيَّات، بعيدًا عن الأمور النظرية التي يطول حولها الجدالُ والمشاحنة والعناد، وتتفرع فيها المسائل، وتتشعب القضايا، ويضيع الحق وسط ذلك كلِّه.

وإذا ما قام بحثنا ودراستنا على المسلَّمات من العقل والفطرة، وكان بحثًا مجرَّدًا عن التعصب إلا للحق، وعن الغرض إلا وصولًا إليه- تكوَّنَ من مجموع ذلك ميزانٌ جدير بأن يأخذَ بأيدينا إلى الحق، ويهدينا بإذن الله تعالى سواءَ السبيل، وهو ميزان من شأنه أن يُلزِمَ جميعَ العقلاء؛ لأنه يقوم على المسلَّمات والأوَّلِيَّات التي لا تقع فيها خصومة، ولا يدور في إطارها عناد، أو مشاحنة.





المنهج

بعد أن انتهينا من وضع الميزان الذي يصلح مقياسًا نعتمده في مقارناتنا بين الأديان، نبدأ بحول الله تعالى في دراسة القضايا الأساسية والأصولية التي تقوم عليها الأديان دراسةً تحليليةً، ثم نقارن بينها، وذلك بعرضها على الميزان الذي ارتضيناه؛ لنصل- في النهاية- إلى الحكم لها أو عليها، وقبولها أو رفضها.

ومنهجنا أن نأخذَ العقائدَ الأساسية للأديان عقيدةً بعدَ عقيدةٍ، فنأخذ العقيدة الواحدة في دين من الأديان، وليكن اليهودية- مثلًا- ثم ندرس تلك العقيدة دراسةً تحليليةً، ثم نعرضها على الميزان؛ ليعطينا الحكم الصحيح بالنسبة إليها، ثم نأخذ نفس العقيدة في دينٍ آخَرَ، فندرسها ونحللها ونعرضها على ميزاننا، وهكذا في كل الأديان التي نتعرض لدراستها ومقارنتها.

وحتى نكونَ منصِفِين، فسنأخذ العقائد في أي دين مِن فهمِ أصحابها، وكما يشرحها ويوضحها ويؤمن بها الذين يعتنقونها دينًا، وسنرجع في ذلك إلى كتبهم المقدَّسة، وشروحهم على هذه الكتب، وكما يزاولونها عملًا.

وسنقتصر في دراستنا على المقارنة بين الأديان الكتابية (اليهودية، والنصرانية، والإسلام).

وسنقتصر في مقارناتنا بين هذه الأديان على القضايا الآتية:

أ- الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ذاتًا، وصفاتٍ، وأفعالًا.

ب- الإيمان بالأنبياء- صلوات الله عليهم أجمعين.

ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الهداية والتوفيق، وهو- سبحانه- حسبنا ونعم الوكيل.



القسم الثالث

الذات الإلهية وصفاتها





الاعتقاد في الذات الإلهية- في دين ما- لا يتضح إلا من خلال البحث في صفات تلك الذات؛ إذ أن الاعتقاد في الصفات هو الذي يحدد معالم الاعتقاد في الذات؛ فنحن نرى كل ذي دين يؤمن بذات، أو ذوات إلهية، ، لكن ما تلك الذات، أو الذوات؟ وما حقيقة الاعتقاد فيها؟

لا يتضح ذلك إلا من خلال دراسة الصفات التي يعتقد المؤمن اتصاف تلك الذاتِ بها؛ لذلك سوف نبدأ دراسةَ الاعتقاد في الذات الإلهية بدراسةِ الاعتقادِ في الصفاتِ التي تتصف بها الذاتُ عند المؤمنين بها.





صفة الوجود

صفة الوجود بالنسبة للذات الإلهية هي الصفة الأمُّ التي يتوقف على ثبوتها ثبوتُ بقية الصفات للذات الإلهية، فإذا لم تثبت تلك الصفة؛ فإن ثبوت الصفات الأخرى يمتنع تلقائيًّا، وكذلك إذا ما لحقها نوع من النقص؛ فإن ذلك النقص ينعكس على الصفات الأخرى فيلحقها؛ لهذا كان الحديث عن صفة الوجود يسبق دائمًا الحديث عن الصفات الأخرى لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وصفة الوجود بالنسبة للذات الإلهية، هي غيرها بالنسبة إلى الموجودات الأخرى؛ ذلك أن صفة الوجود بالنسبة لكافة الموجودات- سوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هي صفة غيرية، بمعنى: أنها غير ذواتها، فهي لم تلحق الموجودات لذواتها، بل لحقتها لسببٍ خارجٍ عن تلك الذوات فاعلٍ فيها، وذلك الوجود الذي لحق الموجودات هو أَثَرُ فعله، فهي- إذن- موجودةٌ بفعل غيرها؛ لذلك صحَّ أن يقال: إنها موجودة لغيرها، أو من غيرها.

ودليل ذلك: أن تلك الموجوداتِ لم تكن ثُمَّ كانت، بمعنى: أنها كانت قبل وجودها معدومةً، ثم وُجدت، ثم هي بعد وجودها يقع بها العدمُ، ولو كان الوجود

يلحقها لذواتها لَـمَا قبلَتِ العدمَ سابقًا أو لاحقًا؛ لأن ما بالذات لا يتخلَّف.

أمَّا الوجود بالنسبة للذات الإلهية فليس شيئًا زائدًا على الذات، أو غير الذات، بل هو عين الذات، فهو صفة ذاتية، وليست غيرية، كما في الموجودات الأخرى، ولأن الوجود في الذات الإلهية هو عين الذات، وليس شيئًا زائدًا عليها عُرِّفت صفة الوجود بأنها: صفة نفسية أو ذاتية، بمعنى: أنها نفس الذات، وليست غيرَها.

ولأن الوجود في الموجودات الأخرى غيرُ ذواتها، فقد صحَّ أن يُضافَ إليها فتوجَدَ، وأن يُسلبَ عنها فتفنى. أما الذات الإلهية فالوجود عين ذاتها؛ لذلك استحال أن يُسلب عنها؛ لأنه- أصلًا- لم يُضَفْ إليها، ومِن ثَمَّ فقد امتنع أن تتصفَ بالفناءِ أو العدمِ- سابقًا أو لاحقًا.

هذا الذي قلناه عن صفة الوجود ليس خاصًّا بدين أو عقيدة بعينها؛ بل هو من مسلَّمات العقل والفطرة لدى المتدينين جميعًا، وبخاصة في الأديان الكتابية؛ بل هو من المسلَّمات لدى العقلاء جميعًا؛ لذلك قدَّمنا بهذه السطور قبل أن ندخل في التفصيلات التي يختلف حولها المتدينون؛ ليعلم أن هذه الحقيقة لا يختلف حولها أحد من أتباع الديانات الكتابية، على الأقل من الناحية الكلامية أو النظرية، كما سيتضح ذلك في حينه.

وإذا انتهينا من الكلام على صفة الوجود بصورة عامة، فلندخل بعد ذلك إلى دراسة عقيدة المتدينين من أهل الكتاب في هذه الصفة، ولنبدَأْ بعقيدة اليهود، ثم النصارى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المستعان.

عند اليهود

يعتقد اليهود أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ موجودٌ، وأن وجوده تعالى أزليٌّ لم يُسبَقْ بعدم، ويعتقدون أن الله ﷻ كان ولا شيء معه، ثم خلق كل شيء من عدم، فأوجد العالَمَ كلَّه بكلمة «كن» أو بكلمة «فليكن»، وقد خَلَقَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ العالَمَ في ستة أيام، تبدأ بالأحد، وتنتهي بالجمعة، ثم استراح سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عما يقولون علوًّا كبيرًا- في اليوم السابع. ويعتقد اليهود أن الوجود الحق هو وجود الله تعالى وكل ما عداه من موجودات فإنما يستمد وجوده منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وعقيدة اليهود هذه عقيدة صحيحة[1]، وهي العقيدة التي تذهب إليها الفطرة

---

(١) باستثناء زعمهم استراحته -سبحانه-؛ فهو منزه عن التعب، وأمور أخرى ننبه إليها في محلها أما صفة الوحدانية وكونه سبحانه واحد لا شريك له فهذه عقيدتهم وهي صحيحة، أما الصفات الموصوف بها -سبحانه- عندهم ففي قمة الضلال والزيغ، وأما قول الله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣٠]، فهذه بنوة تكريم وتعظيم لعزير الذي له تاريخ طويل عندهم ليس هذا مكان ذكره، والدليل على أن نبوة عزير ليست حقيقية كنبوة المسيح عند النصارى أن الله -تعالى- في الآية التالية ذكر المسيح ابن مريم ولم يذكر عزيرًا فقال سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾[التوبة:٣١]، أما في صفات الله تعالى فقد ضلوا ضلًا بعيدًا،

السوية، ويؤيدها العقل السليم، ولا يوجد لدينا تعقيب عليها، وإن كان لنا عود إليها فيما يتفرَّع عنها مِن نتائجَ، ومدى التزامهم بتلك العقيدة، عند حديثنا عن بعض الصفات الأخرى، وموقفهم منها.



=

وحين نزل قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[البقرة:٢٤٥]، قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء ... إلى آخر ضلالاتهم إن كان لها آخر.

عند النصارى

يعتقد النصارى في وجود آلهة ثلاثة، ويعتقدون أن كل واحد من الآلهة الثلاثة متصف بصفة الوجود استقلالًا عن الإلهين الآخَرين، وأن وجود كل من الآلهة الثلاثة هو وجود أزليٌّ قديم لم يُسْبَقْ بوجودٍ آخَرَ، وهم يعتقدون كذلك أن وجود الموجودات الأخرى فرع عن ذلك الوجود الأزليِّ القديم؛ فوجود الآلهة ذاتيٌّ، ووجود العالم غيريٌّ.

ولكي تتضح عقيدة القوم ونستطيع مناقشتها، ينبغي علينا أن نشرحها ونوضحها من خلال: كتبهم المقدسة، وشروحهم، وأحاديثهم، وشعائرهم- أيضًا- وسنلتزم- بكلِّ أمانةٍ ودقة- نَقْلَ عقيدتِهم كما هي عندهم.

يعتقد النصارى في وجود آلهة ثلاثة هم على الترتيب:

١- الله- الآب.

٢- الله- الابن.

٣- الله- الرُّوح القدس.

وهؤلاء الآلهة الثلاثة يحتلون في عقيدتهم منزلةً متماثلة فيما يتصل بالصفات الكمالية؛ فكلُّ إلهٍ من هؤلاء الثلاثة موجودٌ، حيٌّ، مريدٌ، عليمٌ، قادرٌ، سميعٌ، بصيرٌ... إلى آخِرِ الصفاتِ الإلهية الكمالية، وكل منها مستقِلٌّ بهذه الصفات في ذاته استقلالًا تامًّا.

وهم يعتقدون- رغم ذلك- أن هؤلاء الثلاثة الذين يستقلُّ كلٌّ منهم بذاته وبصفاته وأفعاله، يعتقدون أن هؤلاء الثلاثة إله واحد فقط، ولا يَسْبِقَنَّ إلى ظنك أننا قد نقضنا عهدَنا بصدق النقل عن القوم، وأننا نفتري عليهم؛ فإننا صادقون في النقل عن القوم، وإن القوم جادُّون فيما يقولون، لا يهزلون، هم جادُّون في اعتقادهم بآلهة ثلاثة كل منهم مستقل بذاته وصفاته، وجادون- أيضًا- في اعتقادهم بأن هؤلاء الثلاثة إله واحد وذات واحدة، وهم يعبرون عن عقيدتهم تلك بأنها: «تثليث في توحيد، وتوحيد في تثليث»، ويصفون آلهتهم بأنهم: «ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة». ولنأخُذْ بعض النصوص التي توضح عقيدتهم تلك من كتبهم وشروح علمائهم.

يقول الدكتور يوسف بوست- وهو أحد علمائهم- شارحًا تلك العقيدة-: «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الآب، الله الابن، الله الروح القدس، فإلى الأب ينتمي الخلق، بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير، غير أن الثلاثة تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء»[1].

وهذا عالِـمٌ آخَرُ من علمائهم يوضح عقيدتهم تلك، ويحاول أن يُقِيمَ الدليلَ

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (ص١٦).

على أن التثليث أمرٌ بدهي، وأن الإله الواحد لا يصلح أن يكون إلهًا؛ بل لا بدَّ أن يكون ثلاثة، وإلا بطل كونه إلهًا.

يقول عالم من علمائهم المشاهير في ذلك: «من الناس من يقول: لِـمَ يا ترى إله واحد في ثلاثة؟ أوَ ليس في التعدد انتقاصٌ لقَدْرِ الله؟ أوَ ليس من الأفضل أن يقال: الله أحد وحسب؟ لكننا إذا اطَّلعنا على كُنه الله لا يسعنا إلا القول بالتثليث؛ فكُنه الله محبة، ولا يمكن إلا أن يكون محبة ليكون سعيدًا؛ فالمحبة هي مصدر سعادة الله، ومن طبع المحبة أن تفيض وتنتشر على شخص آخَرَ فيضانَ الماء وانتشارَ النور، فهي- إذن- تفترض شخصين على الأقلِّ يتحابَّان، وتفترض مع ذلك وحدةً تامَّة بينهما؛ فلكي يكونَ الله سعيدًا- ولا معنى لإلهٍ غيرِ سعيدٍ، وإلا انتفت عنه الألوهية- كان عليه أن يهب ذاته شخصًا آخَرَ يجد فيه سعادته، ومنتهى رغباته، ويكون بالتالي صورةً ناطقةً له؛ ولهذا وَلَدَ اللهُ الآب الله الابنَ منذ الأزل نتيجة لحبه إيَّاه، ووهبه ذاته، ووجد فيه سعادته، ومنتهى رغباته، وبادل الابنُ الأبَ هذه المحبة ووجد فيه سعادته، ومنتهى رغباته، وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الأب والابن كانت الروحَ القدس.

هو الحب- إذن- يجعل الله واحدًا وثالوثًا معًا، ولا يصحُّ أن يكون هذا الكائن الذي حبس الله محبته عليه إلا الابن؛ إذ لو كان غيرَ الابنِ- بأن كان بشرًا أو ملاكًا- لكان خليقةً محدودةً، ولكان الله بحاجة إلى مَن دونه كمالًا، وعُدَّ ذلك نقصًا في الله، والله منزَّهٌ عن النقصِ.

ليس الله- إذن- كائنًا تائهًا في الفضاء، منعزلًا في السماء، ولكنه أُسْرَةٌ مؤلَّفَةٌ

من ثلاثةِ أقانيمَ، تسودها المحبةُ، وتفيض منها على الكون براءته، وهكذا يمكننا أن نقول: إنَّ كُنْهَ الله يَفرِضُ التثليثَ»[١].

ويقول مؤرخهم المعروف الأستاذ زكي شنودة: «وقد عرف المسيحيون من السيد المسيح أن الله واحد في ثلاثة، هم: الآب، والابن، والروح القدس، وأن هؤلاء الثلاثة هم طبيعة واحدة، وذاتٌ واحدة، وجوهر واحد، منزه عن التأليف والتركيب، وهذه حقيقة تفوق الإدراك البشري، وقد فهمنا من كلام السيد المسيح أن الآلهة الثلاثة الذين هم في الله، وإن اتحدوا جوهرًا وطبعًا وذاتًا، وصاروا واحدًا، إلا أنهم ثلاثة لا واحد؛ فالآب ليس هو الابن، والروح القدس ليس هو الآب، ولا الابن»[٢].

وأعتذر إلى القارئ الكريم من الإطالة في النصوص المنقولة بما لا يتفق مع هذه المذكرات الموجزة، ولكننا عمدنا إلى ذلك حتى نتقيَ تهمة الافتراء على القوم، فقد يسبق إلى الوهم أنا نفتري عليهم حديث الخرافة هذا؛ فأثبتنا تلك النصوص التي اشتملت على أمرين هامين:

الأول: شرحُ عقيدتهم وتوضيحها على هيئة مفصلة.

الثاني: إقرارُهم بأن هذه العقيدة لا تتفق مع العقل؛ بل تتعارض مع بديهة العقل، وتُناقِض مسلَّمات الفطرة، ومن هنا جاء إلحاحهم الشديد بضرورة تعطيل العقل؛ حتى يتسنى لهم قبول هذه العقيدة.

---

(١) بونس إلياس اليسوعي، يسوع المسيح (ص٧٦- ٧٧).

(٢) زكي شنودة، تاريخ الأقباط (١/ ٢٣٤).

ويهمنا أن نركِّزَ على بعض النقاط التي جاءت في تلك النصوص؛ لحاجتنا إليها في الحديث عن صفة الوجود بالنسبة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالقوم يعتقدون أن «الإلهَ الآبَ» كان وحيدًا، فأحسَّ بحاجته إلى ذات ثانية توجد معه ويُفيض عليها محبته؛ لذلك أوجد «الإلهُ الآبُ» تلك الذاتَ، وكانت تلك الذات هي «الإله الابن»، وعندما وُجد الابنُ أحبه الأبُ حبًّا شديدًا، وبادله الابنُ حبًّا بحبٍّ؛ فنشأ عن المحبة المتبادَلة بينهما إلهٌ ثالث هو: «الإله الروح القدس».

والنظر في هذه العقيدة- انطلاقًا من شرحهم لها وتوضيحهم تَفَاصِيلها- يرى أن هنالك فروقًا بين صفة الوجود بالنسبة لله الأب، وصفة الوجود بالنسبة لله الابن، والله الروح القدس، **وأَوضحُ هذه الفروقِ أمران:**

الأول: أن وجود الله الآبِ هو وجودٌ بالذات، وليس بالغير؛ فالله الآب موجود، ووجوده لذاته، فليس محتاجًا في وجوده إلى غيره.

أما وجود الله الابن، والله الروح القدس؛ فهو وجود غيريٌّ وليس ذاتيًّا؛ فهما موجودان لغيرهما، وليس لذاتهما، فوجودُهما مستمَدٌّ مِن الغير، ومستنِدٌ إليه، والدليلُ على ذلك: أنَّ الله الابن قد وُجد بسبب أن الله الأب أحسَّ بالحاجة إليه والرغبة فيه، فأوجده أو «ولده» كما هي عبارتهم، ونصُّها: «فلكي يكونَ الله سعيدًا، كان عليه أن يهبَ ذاتَهُ شخصًا آخَرَ؛ ولهذا وَلَدَ اللهُ الآب الله الابنَ»، ثم نشأ الله الروح القدس بعد ذلك نتيجةً لعلاقة المحبة التي بين الآب والابن، وعبارتهم نصًّا: «وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الأب والابن كانت الروحَ القدس».

وإذن؛ فالإله الابن والإله الروح القدس موجودان لغيرهما، وليس لذاتهما،

فوجودُهما مستمَدٌّ من الغير ومستنِدٌ إليه، وهما محتاجان إلى الغير في وجودهما، سواء في أصل الوجود، أو في استمراره وبقائه.

الثاني: أن وجود الله الابن والله الروح القدس هو وجودٌ حادِثٌ، وليس وجودًا قديمًا، ونعني بذلك: أن وجودهما لم يكن ثُمَّ كان، وهذا واضح من عقيدة القوم؛ فهم يعتقدون أن الله الأبَ كان وحيدًا، فأحسَّ بحاجته إلى ثانٍ لِيُفيضَ عليه من محبته، وليتبادل معه المحبةَ، وكان عليه أن يهبَ ذاتَهُ شخصًا آخَرَ؛ «ولهذا وَلَدَ اللهُ الآب الله الابنَ».

إذن فقد كان الله الأب وحده، ثم أحسَّ بحاجته إلى ثانٍ، فوهب ذاتَهُ ابنًا، أو وَلَدَ اللهُ الأبُ اللهَ الابنَ، وإذن فهناك فارِقٌ بين الوجودين، أحدُ الوجودين قديم، وهو وجود الله الأبِ، والوجود الثاني هو وجود حادث قطعًا، وهو وجود الله الابنِ، وكذلك وجود الله الروح القدس الذي جاء تاليًا لوجود الله الابن.

وهذه حقيقة تفرضها بداهةُ العقلِ ومسلَّماتُ الفطرةِ، ولا سبيل إلى إنكارها وإخفائها، ولا ينفعهم في ذلك التلاعبُ بألفاظ لا مفهومَ لها، كقولهم: «ولهذا ولد الله الآب الله الابن منذ الأزل»، فعبارة: «منذ الأزل» لا معنى لها، ولا تفيدهم شيئًا؛ فنحن لا يعنينا الألفاظ والمصطلحات التي يُقصد مِن ورائها إخفاءُ الحقيقة أو تغييرُها، ولكن تعنينا حقائق الأشياء التي تفرضها أوَّلِيَّاتُ العقلِ وتُحَتِّمُها مسلَّماتُ الفطرة.

أ- فبداهة العقل ومسلَّماته تقضي بأن يكون الأب سابقًا على الابن في الوجود، وإلا فإن كان وجودهما معًا، ولم يكن أحدهما سابقًا في الوجود؛ فما

المسوِّغ لأن يكونَ أحدُهما الأبَ، والآخَرُ الابنَ؟ ولماذا لا يكون العكس؟ وهو أمر- إن حدث- فلا مسوِّغَ له- أيضًا.

ب- وبداهة العقل ومسلَّمات الفطرة تقضي بأن يكون الفاعل سابقًا على مفعولِه في الوجود، فإذا كان الإله الأب وحيدًا في الأزل، ثم شعر بحاجته إلى شخص ثانٍ يُفيض عليه محبته ويبادله إيَّاها، فوهب ذاتَهُ الإلهَ الابنَ، أو «وَلَدَهُ» كما يقولون! فإن بداهة العقل تقضي بأن الإلهَ الأبَ سابقٌ في الوجود على الإله الابن، وأن الإله الأب كان أولًا ولا شيء معه، ثم أَوجد الإلهَ الابنَ في مرحلة لاحقة، ثم وُجد الإله الروح القدس في مرحلة تالية لوجود الإله الابن؛ لأنه وُجد نتيجةَ الحبِّ المتبادَل بين الأب والابن، فيكون بعدهما ضرورة.

نصل من كل هذا إلى أن الآلهة الثلاثة في عقيدة النصارى ليسوا سواءً في صفة الوجود التي يتصف بها كلٌّ منهم.

فالله الأب موجود لذاته، ووجوده قديم. والله الابن موجود لغيره، ووجوده حادث. والله الروح القدس موجود لغيره، ووجوده حادث.

والنتيجة التي نصل إليها من ذلك: أن الإله الابن لا يصلحُ أن يكون إلهًا، ومثلُ ذلك الإلهُ الروحُ القدس لا يصلح أن يكون إلهًا؛ ذلك أن الإله لا يكون مفتقرًا إلى غيره في الوجود، ولا يكون معدومًا، ثم يُوجَد؛ فالإله لا يكون محتاجًا؛ لأن الاحتياج نقصٌ، والإله كامل، وإذا كان الاحتياج هو في صفة الوجود التي هي الصفة الأمُّ على- ما بينَّا- فإن الأمر يكون أَوضحَ من أن يُشرحَ ويُفصَّلَ. وكذلك لا يكون الإله معدومًا، ثم يُوجِده موجِد؛ فإن ذلك من شأن الموجودات

الناقصة، والإله مُنَزَّهٌ عن ذلك.

يبرز من خلال هذه الدراسة الموجزة حقيقة واضحة لا غموض فيها، ولا إبهام، وهي: أن النصارى يلزمهم القول بالتوحيد المطلق، من خلال عقيدتهم هم؛ حيث قد ثبت أن الثلاثة الذين يؤمنون بهم، لا يصلح منهم أن يكون إلهًا إلا إلهٌ واحد فقط، أما الاثنان الآخَرَان فادِّعاء ألوهيتهما ادعاءٌ باطل بكلِّ المقاييس، فهما محتاجان إلى غيرهما في وجودِهما، ثم في كلِّ ما يترتب على الوجود مِن صفات، ثم هما حادثان أي: موجودان بعد أن كانا معدومَين.

وكيف يكون الإله محتاجًا إلى غيره؟ ثم كيف يكون الإله حادثًا؟ وذلك الإله الحادث مَن كان يقوم مقامه قبل أن يوجَد؟ وإن كان الوجود في غِنى عنه قَبلًا؛ فهكذا ينبغي أن يكون بَعدًا، وإن كان هناك مَن قام مقامه في الأزل؛ فهكذا ينبغي أن يظل السابق هو الإله، وليس الحادث.

وهذا الذي قرَّرناه لم يخْفَ على معتنقي هذه العقيدة الغريبة؛ فقد عرفوا أنها لا تستقيم مع عقل ولا منطق، وأنها تُناقض أبسطَ المسلَّمات وأَوضحَ البَدَهيات؛ لذلك كان من قواعد هذا الدين- عندهم-: أنه لا يَستَنِدُ إلى أساس من العقل، أو الفهم، وأنه على مَن يَدِينُ به أن يُبطِلَ عقلَهُ، ويُعطِّلَ إدراكه، ويَقْبَلَهُ دون وعيٍ أو فهم، ومِن ثَمَّ فقد جرى على لسان خاصَّتهم وعامَّتهم أن حقائق الدين لا يقبلها العقلُ؛ لأنها فوق إدراكه، وقد مرَّ بنا قولُ أحدِ علمائهم- عن أصول دينهم، بعد أن شرح تلك الأصول-: «وهذه حقيقةٌ تَفُوقُ الإدراكَ البشريَّ»[1]، وأصبح مِن

---

(١) ارجع الى (ص٦٣) من هذا البحث.

القواعد التي تجري عندهم مجرى الأصول الدينية المسلَّمة: أن قواعد هذا الدين وأصوله هي للإيمان، وليست للعقل، وأنه لكي تَقتنِعَ بذلك الدينِ عليكَ أنْ تؤمِنَ به أولًا، ثم يأتيك الاقتناعُ والفهمُ بعد ذلك.

فانظر كم هو عجيبٌ أمرُ إنسانٍ يعتنق دينًا في غيبة مِن وعيه وإدراكه، بل والأصل من ذلك: أن يكون على وعيٍ وإدراك يوضحان له بطلانَ تلك العقيدة، ويُبيِّنان له زيفَهَا.

ثم إذا كان على الإنسانِ أن يقبلَ مثلَ ذلك المبدأِ- وهو اعتناق دين لا يقبله عقله- بحجة أن مبادئه فوق إدراك البشر؛ فما الضمان للإنسان في أن ما اعتنقه هو الصحيح، وأن خلافه هو الباطل؟ وبناءً على أيِّ شيءٍ يعتنق الإنسان دينًا ويترك الأديان الأخرى، إذا كان يقبل ما يقبل، ويرفض ما يرفض، بعيدًا عن العقل والفهم؟!





الوحدانية

يُقصَدُ بالوحدانية وصفُ الإله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأنه واحد في ذاته؛ فلا توجد ذاتٌ تُماثِل ذاته، واحد في صفاته؛ فلا توجد صفةٌ تُماثِل صفاته، واحد في أسمائه فلا يوجد اسمٌ يماثل أسماءه في حقيقها، واحد في أفعاله؛ فلا يوجد فِعلٌ يُماثِل فِعْلَهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والناظر في شأن هذه الصفة يلاحظ: أنها لا تضيف معنى إلى الذات الأقدس- سبحانه- ولكنها تفيد سلب بعض المعاني التي لا تليق بجلاله تعالى؛ ولذلك اصطلح العلماء على «وصف» هذه الصفة وما يماثلها بأنها صفات «سلبية»، بمعنى: أنها تفيد سلب نقيضها عن الذات الإلهية .

وصفة الوحدانية بهذا المعنى تفيد سلب التعدُّد في ذات الله سبحانه وتوضِّح أن الله تعالى واحد لا شريكَ له.

وقد أَثبتَتِ الدراساتُ الاجتماعية والدينية أن التوحيد- توحيد الإله المعبود- فطرةٌ في الإنسان مغروسةٌ، خُلِقَ بها، وجُبِلَ عليها، لا يملك أن يخرجَ على هذه الفطرة، ولا أن ينفلِتَ منها؛ فهي تُعَبِّرُ عن نفسها، وتعلن عن وجودها بأكثرَ من

وسيلة، وإنك لواجدٌ أَثَرَ هذه الفطرة- فطرةِ التوحيدِ- واضحًا عند أكثر المتدينين تعديدًا، وأشدِّهم إغراقًا في الشرك.

فقد اتفقَتِ العقائدُ لدى المتدينين جميعًا- وضعيًّا، أو إلهيًّا- الذين يعبدون أكثر من إله: أن لدى كلِّ قومٍ يعبدون آلهةً كثيرةً إلهًا واحدًا يختصُّ بصفات لا يتصف بها غيره، ويمتاز بإمكانات لا يشاركه فيها سواه؛ فمن الثابت يقينًا أن لدى كل الذين يعبدون أكثر من إله، إلهًا واحدًا ممتازًا عن بقية الآلهة التي يؤمنون بها ويدينون لها، فليس هناك قوم آمنوا بعدد من الآلهة على قدر من المساواة الكاملة.

ومن طبيعة الإنسان- عند العارفين بطبيعته-: أنه لا يملك المساواة المطلقة بين الأشباه والنظائر، وأن الشيئين الاثنين في المضمار الواحد لا يمكن أن يجدا لدى الإنسان صدًى متماثلًا، ولا أن يحتلَّا من قلبه وعقله منزلةً واحدة، والإنسان لم يعرف في لغة من لغاته لفظةً تدلُّ على المساواة التامة بين شيئين على الإطلاق.

وكلمتا: الأشباه والنظائر- وما يماثلهما في اللغة- لا تدلان على المساواة المطلقة بين ما يقع تحتهما، أو ما يقعان عليه مِن موضوعهما؛ بل إنهما قبل أن تدلَّا على المساواة والمماثلة، تدلَّان على الاختلاف والمغايرة.

وعلماء الاجتماع والباحثون في مجال الأديان يؤكِّدون أنه لم يوجد لدى الإنسان- على مدى تاريخه المعلوم لهم- دينٌ أو عقيدةٌ ساوى فيها بين الآلهة التي يعبدها مساواةً كاملة؛ بل كان دائمًا يُميِّزُ بينها، ويُرجِّحُ واحدًا على الآخَرِين.

فالتمييز والترجيح بين الآلهة وُجِدَا لدى الإنسان منذ عبد الإنسانُ الآلهةَ الكثيرة والعديدة.

وقد أَخَذَ هذا التمييزُ والترجيح يتجه نحو هدفه المقرَّر، وغايته المحدَّدة تدريجيًّا، حتى وصل الإنسان إلى عقيدة التوحيد الكامل الذي لا تشوبه شائبة الشرك.

وعقيدة التوحيد الكامل عرفها الإنسان من طريقين:

الأول: من وحي الله تعالى على أيدي رسله وأنبيائه، وهذا الطريق هو الطريق المأمون الخالي مِن كلِّ شوائب الشرك، وأدران الوثنية، وبهذا الطريق بدأت مسيرةُ البشرية في كَنَفِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بدءًا بأبي البشرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وختمًا بأشرف أبنائه وأنبياء الله، محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: الجهود البشرية التي تتجه إلى البحث عن الحق في غياهب الظلمات؛ فَبَيْنَ رسالةٍ ورسالة، وعلى فترة من الرُّسل، تهتبلها الشياطينُ فرصةً، فتجتال بني آدَمَ، وبغرور من العقل البشري يدسُّ أنفَهُ في تعاليم الله تعالى فَيُفسد منها بقدر ما يفرز فيها من أوهامه وأضاليله، ولا يمرُّ وقت طويل حتى يتحوَّلَ الدينُ الإلهيُّ إلى مذهبٍ شيطانيٍّ، وتُستبدل الأضاليل الموهومة بالكلمة الإلهية المعصومة، ويجد الناسُ أنفسَهم تحت وطأة الشرك والوثنية، لكن يظل هنالك بريقٌ لجذوة من النور وسط كلِّ هذا الرُّكام الهائل من الظلام الدامس، تلك الجذوة هي بذرة الخير التي غرسها الله في الإنسان، وفطره عليها، والتي تعبر عن نفسها دائمًا برفض الآلهة الكثيرة، بأن تجعل لها كبيرًا أو زعيمًا أو عظيمًا يَكْبُرُ عليها وتَصْغُرُ عنه.

وكما قلنا- قبل ذلك-: يظل التمييز يتبلور ويتضح حتى يصلَ الإنسان في النهاية إلى دعوة التوحيد من خلال التكثير والتعديد.

والإنسان الذي قدَّرَ اللهُ له الهدايةَ، يبحث عن الحقِّ وسطَ دياجيرِ الظلامِ،

يهديه إلى ذلك عقلُه، وتُنير له الطريقَ فطرتُه، حتى يصل إلى التوحيد الكامل وسط خضم متلاطم من الشرك والوثنية.

ومن أمثال هؤلاء المهديين: زيد بن نفيل في الجاهلية، الذي كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول للطائفين من حوله: إليَّ أيها النّاس، فوالذي نفسي بيده ما يعرف الدين الحق سواي، ثم يقول:

أربٌّ واحُـــــدُ أم ألـــــف رب أديـــن إذا تعـــددت الطريـــق

وغيره ممن يُسمون في التاريخ بالحنفاء.

عقيدةُ التوحيد- إذن- هي العقيدةُ الحقَّةُ التي جاء بها الدينُ الحقُّ، والتي يؤكِّدها العقلُ السليم، وتدعو إليها الفطرةُ السويَّةُ، وكلُّ ما عداها من صور الشرك والتعديد عقائدُ باطلةٌ.

إذا عرفنا ذلك، فماذا نجد حول القضية- قضية التوحيد أو التعديد- عند اليهود؟ ثم عند النصارى؟

على الصفحات التالية نحاول- بحول الله تعالى- أن نُبين ذلك، ولنبدأ باليهود، والله الهادي إلى سواء السبيل.



عند اليهود



يعتقد اليهود بالوحدانية صفة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فهم يؤمنون بأن الله ﷻ واحد لا شريك له.

لكنَّ هذا التوحيدَ- عندهم- شابتْهُ شوائبُ باطلةٌ، وأفسدَتْ منه عقائدُ فاسدةٌ، وهذه العقائد الفاسدة إن لم تذهب بالتوحيد عقيدةً، فقد ذهبت ببهائه وصفائه وجعلته اسمًا بلا مُسَمَّى: وغيرَّوا من حقيقته تبعًا لظروفهم التاريخية.

ونحن نشير إلى تلك العقائد التي شوَّهت عقيدة التوحيد الكامل لدى اليهود، **ونخصُّ من ذلك أمرين، نوجز القول فيهما:**

الأمر الأول: قولهم: عزير ابن الله، ذلك القول الذي صرَّح به القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]

فما حديث عزير هذا؟

اختلف المفسرون والمؤرخون حول شخص عزير **على قولين:**

القول الأول: أن المراد بعزير هو صاحب القرية الذي ذكر الله تعالى قصته في أواخر سورة البقرة في قوله تعالى:

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وكان رجلًا صالحًا أو كان نبيًّا، وقد خرج يدعو إلى الله قاصدًا إحدى القرى البعيدة، فمرَّ في طريقه بتلك القرية الخاوية على عروشها، فتعجب من قدرة الله تعالى على إحياء تلك القرية، على فناء كل شيء فيها فناءً أضاع كلَّ أثرٍ لكل شيء، فأماته الله مائةَ عامٍ ثم بعثه.

وتعجُّبُه هو في مثل حال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ذكره الله تعالى في الآية التالية لتلك الآية:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ...﴾ الآية [البقرة:٢٦٠].

قالوا: فانقطعتْ أخبارُه (أي: عزير) عن قومه مائة عام، فلما عاد بعد هذا الزمن الطويل إلى قومه وعرفه القومُ الذين كانوا قد سمعوا بقصةِ اختفائه من الجيل السابق فُتنوا به، أو فُتنوا فيه، وقالوا: إنه ابنُ الله.

القول الثاني: أن المراد بعزير هذا هو الكاهن الشهير في تاريخ اليهود، واسمه

في أسفارهم «عزرا»، وينسبونه فيقولون هو: عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا.

ويقول صاحب تفسير المنار في سبب تغيير اسمه من «عزرا» إلى «عزير» إن الذي قام بذلك التغيير هم اليهود من العرب، فقد صغَّروا اسمَه محبةً له وإعزازًا، وله شواهدُ كثيرةٌ في العربية، وقد جاء القرآن باسمه المعروف به عند اليهود من العرب.

وعزرا هذا- أو عزير- كان حَبْرًا مِن أحبار اليهود وعالـمًا مِن أشهر علمائهم، وهو مِن يهودِ السبي، من نسل الذين سباهم بختنصر من بني إسرائيل من أرض فلسطين إلى بابل.

وقد ظل عزير هذا في بابل مع اليهود الذين آثروا البقاء هناك، بعد أن عاد معظم الأسرى إلى أرض فلسطين في وقت لاحق لسبيهم على يد كورش الملك الفارسي.

أما لماذا قالت اليهود مقالتهم هذه في عزرا أو عزير؟ فلذلك قصة:

فعندما وقعت الحروب والأحداث العظام ببني إسرائيل بعد وفاة نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حيث انقسمت مملكته إلى مملكتين، ثم ضاعت المملكتان على أيدي فراعنة مصر تارةً، وملوك بابل تارةً أخرى، ثم كانت الواقعة الكبيرة التي كان لها الأثر الكبير في تاريخهم كلِّه على يد بختنصر عام ٥٨٦ ق.م.

كان من أثر ذلك كلِّه أن ضاعت توراة اليهود، وفُقدتْ أسفارُهم المقدسة، إضافةً إلى أن جمهرة علمائهم الذين كانوا يحفظون التوراة كلَّها، أو بعضًا منها قد قُتلوا في الحروب الكثيرة أو هلكوا.

وقد ظل بنو إسرائيل بدون كتبهم المقدسة يعيشون على اجتهادات أحبارهم، حتى خرج عليهم هذا الكاهن «عزرا» ذاتَ يوم، وأخبرهم بأنه قد حصَّل التوراةَ

كلَّها وحيًا من عند الله وإلهامًا منه- سبحانه- وأنه قد قام بكتابتها في أسفار لا تختلف في قليل أو في كثير عن الأسفار التي أُنزلت على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والأنبياء بعده، وقد كان لهذا الخبر وقعٌ عظيم وأثرٌ كبير في نفوس اليهود؛ حيث أقاموا الأعياد في كل بلادهم، وانقطعوا عن أعمالهم، واجتمعوا في مكان واحد يستمعون إلى الكاهن «عزرا» وهو يتلو عليهم تلك الصحائفَ التي كتبها، والتي استغرقَتْ قراءَتُها على شعب إسرائيل أسبوعًا كاملًا.

لهذا فقد قالتِ اليهودُ مقالتهم هذه في «عزرا» هذا. قالت اليهود: عزير ابن الله لهذا السبب، ولأنه- كما تحكي كتبهم- كان كاهنًا نشطًا، كثيرَ الكتابة، كبيرَ الهمة، ذا أثرٍ عظيم في تاريخ اليهود كلِّه؛ فقد أنشأ مجمعَهم الكبيرَ الذي ظلَّ بعد ذلك طويلًا، وقد كتب أسفارَهم، السفرُ الكامل نَسَخَهُ، والناقصُ أَكْمَلَهُ من عنده، وهكذا. حتى جمع كلَّ أسفارهم، إضافةً إلى أنه أوَّلُ مَن أَدْخَلَ الأحرفَ الكلدانية عوضًا عن العبرانية القديمة، التي كان يهود الأَسْرِ قد نسوها مع مرور الزمن بعيدًا عن فلسطينَ أرضهم ووطنهم في ذلك الزمان.

وقد ذهب البعض إلى أن عزيرًا أو عزرا كان نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل ولكن الذي أراه أنه كان كاهنًا من كهنتهم ولم يكن نبيًّا؛ فإنه لو كان نبيًّا ما قَبِلَ مقالتهم هذه فيه، وَلَرَدَّهَا- إن قيلتْ في وجوده- كما هو الراجح عندي.

كذلك لو كان نبيًّا أو ادَّعى النبوةَ ما وجد الناسُ في أمره غرابةً ولا عجبًا؛ إذ المعلومُ المقرَّرُ- عند الناس جميعًا-: أن الأنبياءَ يُوحَى إليهم؛ فلا غرابةَ أن يُخبروا عن الله تعالى وحيًا، وبخاصَّة ما يتصل بالكتب المنزلة التي ما يزالون يحكمون بشرعها.

وكيف يكون نبيًّا ذلك الذي لا يحفظ الكتابَ الذي جاء ليحكم بين الناس بما أَنزل الله فيه؟! إذن فقد كان الأمرُ عجيبًا لديهم؛ لأنهم كانوا يعرفون عزرا أو عزيرًا كاهنًا، وليس نبيًّا، ولو عرفوه نبيًّا- يُوحَى إليه- ما رأوا في الأمر عجبًا، ولا غرابةً؛ فقد عرفوا الأنبياءَ، وهم فيهم كثيرون- على نبينا وعليهم صلوات الله وسلامه-، وعرفوا أن شأنَ الأنبياءِ الأعظمَ: أنهم يُوحَى إليهم مِن قِبَلِ الله -تعالى-.

إذا عرفنا هذا فقد بقيَ علينا أن نشيرَ إلى أمرين مهمين:

١- أن الذين قالوا هذه المقالة: «عزير ابن الله»، ليسوا هم اليهود جميعًا، وإنما قالها جماعة منهم، أو قالها جمهورُهم، وهذا رأي فريق من العلماء، وهو ما نميل إليه، ومِن العلماء مَن ذهب إلى أن القائل بذلك رجلٌ واحد فقط من جماعة اليهود، وهو رأي غريبٌ مُستبعَدٌ؛ إذ كيف ينزل القرآن يؤاخِذُ أمةً بكاملها بتلك الخطيئة الشنعاء، والقائل بها واحد فقط، والأمة كلها مبرأة؟!

وعلى كل حال فإنه من الثابت لدى العلماء: أن اليهود لم يقولوا تلك المقالة جميعًا في جميع عصورهم، وإنما قالها جمهورُهم في زمن عزير، أو بعده بقليل، ثم انقرض القائلون به، ولم يبقَ منهم إلا جماعة مِن يهود العرب على أيام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقد جاء في التفسير الكبير للرازي [1]: أن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال في بيان سبب نزول الآية: «أتى جماعة من اليهود إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منهم: سلام

---

(١) تفسير الرازي (١٦ / ٢٨).

بن مشكم، والنعمان بن أوفى، وقالوا لرسول الله ﷺ: كيف نتبعك وقد تركتَ قبلَتَنَا ولا تؤمن بأن عزيرًا ابن الله؟ فنزلت الآية الكريمة تحكى قولهم».[١]

٢- أن اليهود الذين قالوا تلك المقالةَ لم يدَّعوا أن عزيرًا ابن الله- تعالى الله عما يقولون- بنوةً حقيقيةً كدعوى النصارى في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما دعوى اليهود أنها بنوةُ منزلةٍ ومكانةٍ؛ فهي بنوةٌ مجازيةٌ، ولو كان الأمر على غير ذلك، ولو كان اليهود يعتقدون البنوةَ الحقيقية لجاء ذلك في القرآن صريحًا، كما ورد صريحًا في النصارى، ولَذَكَرَ لنا القرآنُ أن اليهود يقولون بأن الله تعالى ثاني اثنين، كما ذكر عن النصارى قولهم بأن الله ﷻ ثالثُ ثلاثةٍ، ولكن ذلك لم يَرِدْ في كتاب ولا في سنة، وما ورد عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم كانوا يرون في اليهود أصحابَ اثنين؛ فدعوى البنوةِ- إذن- دعوى مجازيةٌ يُقصَدُ منها المنزلةُ والمكانةُ.

ولذلك فالذي ذكرناه شبيهٌ عند اليهود بما ذكره القرآنُ الكريم عنهم؛ حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة:١٨]؛ فالبنوة مثل البنوة، بنوة مجازية يُقصد منها المكانة الرفيعة، والمنزلة المنيعة، ولها- أيضًا- شبيهٌ في الآية الكريمة التي وصفَتْهم بأنهم: اتَّخذوا أحبارَهم أربابًا من دون الله، كما سيأتي في الفقرة التالية - بحوله تعالى-.

الأمر الثاني: من الأمرين الَّذَيْنِ أَفسدا التوحيدَ الكاملَ لدى اليهود: هو اتخاذُهم أحبارَهم أربابًا من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد ذكر الله- سبحانه- ذلك في

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٤٠٩).

كتابه الكريم؛ حيث قال تعالى في شأن اليهود والنصارى جميعًا-:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣٠- ٣١].

فالآية الكريمة الثانية من الآيتين قد ذَكرتْ أن اليهود اتخذوا أحبارَهم أربابًا مِن دون الله، وكذلك اتخذ النصارى رهبانَهم أربابًا من دون الله. والمراد باتخاذهم أحبارهم أربابًا ليس المعنى الحقيقي، وهو أنهم عبدوا أحبارَهم، ولكن المراد هو لازِمُ المعنى، وهو اتِّباعُهم أحبارَهم في كل ما يُشَرِّعون لهم بالباطل، واتخاذُهم كتابَ الله ظِهْرِيًّا؛ فقد كان أحبارُهم يُحِلّون لهم الحرامَ فيتبعونهم، ثم يحرِّمون عليهم ما أحلَّ الله فيتبعونهم، ولما كان التحليل والتحريم إنما هو شأنُ الرَّبِّ وحده- سبحانه- فكانوا كأنهم جعلوا أحبارَهم أربابًا، بإضفائهم عليهم خصائصَ الربوبية، أو ما هو من خصائص الربوبية، وهو التحليل والتحريم.

رُوي أنه لما نزلتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ...﴾ الآية، جاء عديُّ بنُ حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان نصرانيًّا قبل أن يهديه الله إلى الإسلام، فقال: «أتيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي عنقي صليب مِن ذهب، فقال: «**يا عديُّ، اطْرَحْ عنكَ هذا الوثنَ**». وسمعته يقرأ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

قال: أما إنهم لم يكونوا يَعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أَحَلُّوا لهم شيئًا استحَلُّوه، وإذا حَرَّموا عليهم شيئًا حَرَّموه»[١].

وقد كفر اليهود في الحالين، في زعمهم أن عزيرًا ابن الله- سبحانه عما يقولون- وفي اتخاذهم الأحبارَ أربابًا مِن دون الله، يُحِلُّون ويُحَرِّمون، وهم يتبعونهم في كلِّ ذلك.

وإنما كفروا بذلك رغم أنَّ عقيدتَهم في توحيد الله لم تتغير، لكن تلك العقيدة في الوحدانية شابتْها شوائبُ الشرك، حين قالوا ببنوة عزير لله- سبحانه- حتى ولو كان ذلك من باب المجاز الذي يُرادُ منه رفعةُ المكانةِ وشدةُ القُربِ، إلا أنه ينبغي ويجب علينا أن نُنزه الله تعالى عن شوائبِ الشرك وما يُوهِمُهُ، حتى ولو كان باللسان مما يُوهِمُ نقصًا في ذاته- تعالى-.

وقد كفروا- أيضًا- باتِّباعهم الأحبارَ يُحِلُّون لهم ما حرَّم الله، ويُحَرِّمون لهم ما أحلَّ الله -تعالى- فيأخذون عنهم، رغم مخالفة ذلك كتابَ الله، وما جاء به الأنبياء، والذي يفعل ذلك كأنه قد جعل لله شريكًا في مُلكِهِ، بإعطاءِ ذلك الشريكِ ما هو خاصٌّ بالله- سبحانه- وهو التشريعُ للخلق وتكليفهم بالأمور العبادية.



(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) وقال: حديث غريب.

عند النصارى



قد عرفنا- عند الحديث على صفة الوجود- أن النصارى يؤمنون بآلهة ثلاثة، هم واحد، أو في واحد، وبإله واحد هو ثلاثة، أو في ثلاثة، ويُعبِّرون عن هذه العقيدة بأنها تثليث في توحيد. أو توحيد في تثليث، ويَصِفون الذوات الإلهية بأنهم ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة، وقد مَرَّ بنا توضيحُ عقيدتِهم هذه عند الحديث عن عقيدة النصارى في وجود الذات الإلهية.

إذن فالنصارى مشركون مُعَدِّدون يعبدون آلهة ثلاثة، وحقيقة الأمر في قولهم- إن الثلاثة واحد، أو في واحد، وإن الواحد ينقلب إلى ثلاثة-: أنه حديثُ خرافةٍ فارغٌ من كل معنى، خالٍ من كلِّ مضمون، إلا من معنى واحد، هو: أن القوم قد أدركوا ذلك التناقضَ العجيبَ الذي وقعوا فيه حين آمنوا بآلهة ثلاثة، ثم قرَّروا في ذات الوقتِ: أنهم مؤمنون إيمانًا كاملًا بالأنبياء السابقين، وبما جاءوا يَدْعُون إليه من عقيدة واضحة في وحدانية الله -تعالى- وحدانيةً لا تشوبها أدنى شائبةٍ مِن الشركِ، أو التعديد؛ لهذا أرادوا أن يتخلصوا من ذلك التناقضِ الواضح، فجاءوا بحديث الخرافة هذا- ثلاثة في واحد،

وواحد في ثلاثة- ثم طلبوا من الناس أن يُلْغُوا عقولهم، وأن يتخلَّوا عن الحدِّ الأدنى من الإدراك، وأن يؤمنوا بذلك الحديث الذي لا يُقبَلُ ولا يُعقَلُ.

وهكذا اعتقدوا باطلًا، واعتنقوا ضلالًا، وحينما أرادوا أن يُظهروا هذا الضلالَ في صورة الحقِّ وقعوا في ضلالٍ أكبرَ وأوضحَ، ونزيد ذلك إيضاحًا- بحول الله تعالى- في السطور الآتية.



مناقشة النصارى في عقيدتهم

مناقشة النصارى في عقيدة التثليث والتوحيد هذه تقوم على أمرين:

الأمر الأول: معارضة تلك العقيدة ومناقضتها لبَدَهيات العقل ومُسلَّمات الفطرة، ومن ثَمَّ بطلانها بناءً على ذلك؛ فمن البَدَهيات المسلَّمات: أن الثلاثة لا يمكن أن يكونوا واحدًا، إلا إذا كانوا أجزاء أو أبعاضًا لذلك الواحد. تجتمع الأجزاء إلى بعضها فيتركَّب ويتكون من الثلاثة واحد، وتتفرَّق فينفكُّ الواحد إلى ثلاثة أجزاء.

هكذا، وبهذا المعنى فقط يمكن أن يُفْهَمَ كيف يصير الثلاثةُ واحدًا، والواحدُ ثلاثةً- مع التجوُّز في العبارة-، ولو كان النصارى يعتقدون ذلك لكان الأمر أقربَ إلى العقل والمنطق، ولكان واضحًا أن القوم يؤمنون بإله واحد مركَّب من أجزاء ثلاثة- كائنة ما كانت- لكنَّ القومَ لم يرتفعوا إلى هذا المستوى- على انحطاطه وإسفافه-؛ فهم يعتقدون أن الثلاثة آلهة، وأن كل واحد من الثلاثة مستقلٌّ بكل صفات الألوهية استقلالًا كاملًا، مستقلٌّ بأفعال لا يشاركه فيها

واحد من الإلهين الآخَرين، ورغم ذلك فالآلهة الثلاثة إله واحد.

كيف ذلك؟ كيف يكون ثلاثةٌ كلٌّ منهم مستقِلٌّ استقلالًا كاملًا بذاته وصفاته وأفعاله، ثم يكون الثلاثة واحدًا؟ هذا ما يعارض بداهة العقل والفطرة.

وقد اعترف القوم بمناقضة تلك العقيدة للعقل والمنطق، وقرَّروا أنها عقيدة لا تُعقَلُ ولا تُفهَمُ، لكن بقي عليهم أن يكونوا صادقين مع أنفسهم إلى نهاية الطريق، ويقرِّروا أنها حديثُ خرافةٍ، وأنها باطلةٌ زائفة.

الأمر الثاني: مناقضة تلك العقيدة ومعارضتها لدين الله تعالى ورسالات الرسل السابقين- صلوات الله عليهم- من لدن آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وحديثنا هنا قائمٌ ومبنيٌّ على أساس من اعتقادهم بصدق الأنبياء السابقين من لدن آدمَ حتى عيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ولكي نفهم هذا التناقض في عقيدتهم ننبه إلى أمور ثلاثة:

١- أن النصارى يؤمنون بالأنبياء السابقين، وبأنهم صادقون فيما بلَّغوا عن ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهم يؤمنون برسالة نوح، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وهارون- على نبينا وعليهم صلوات الله وسلامه- وهم يضعون هؤلاء في مرتبة الأنبياء العظام والبطاركة الآباء.

٢- أنهم يؤمنون ويقرِّرون أن جميع هؤلاء الأنبياء والرسل قد بُعثوا من قِبل الله- سبحانه- يُبلغون عنه، ويَدْعُون إلى دينه، وأنهم- جميعًا- قد جاءوا يدعون إلى الإيمان بإله واحد، لا شريكَ له- سبحانه- وأن دعوتهم إلى التوحيد ما كانت تحتمل تأويلًا؛ بل كانت صريحة وواضحة وقاطعة، وأن هؤلاء الأنبياء العظام

ظلُّوا حياتَهم يؤمنون بإلهٍ واحدٍ، ويدعون إلى الإيمان به، ثم غادروا الدنيا على تلك العقيدة التي اجتمع عليها كلُّ الأنبياء السابقين، لم يَشُذَّ عنها واحد لا تصريحًا ولا تلميحًا.

٣- أنهم يؤمنون بأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد جاء تابعًا لهؤلاء الرسل في كل ما جاءوا به، عقيدةً وعملًا، وبالتحديد جاء تابعًا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما جاء يدعو إليه.

وقد قرَّرتْ أناجيلُهم تلك الحقيقةَ وأكَّدتها؛ حيثُ أوردتْ على لسان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «ما جئتُ لِأَنقُضَ الناموسَ». ويقصدون بالناموس: التوراة التي أُنزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما جاء فيها من العقائد والأعمال.

ولسنا بحاجة- بعد أن بَيَّنَّا هذه الأمورَ- إلى أن نقرِّرَ أن عقيدتَهم- في الثلاثة الذين هم في واحد، والواحد الذي هو في ثلاثة- عقيدة مناقضة تمامَ المناقضة، مختلفة كلَّ الاختلاف مع العقيدة التي دعا إليها الأنبياء السابقون الذين يزعم هؤلاء النصارى أنهم مؤمنون بهم وبرسالاتهم التي تدعو إلى الوحدانية، وأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء تابعًا لهم.

ولا سبيلَ إلى الجمع بين ما جاء به الأنبياء السابقون من دعوة صريحة واضحة إلى التوحيد، وما زعمه هؤلاء القوم من عقيدة التثليث.

ويبقى بعد ذلك أن نقرِّرَ: أن عقيدتهم باطلةٌ بناءً على مناقضتها بداهةَ العقل، وعلى تعارُضِها مع رسالات السابقين مِن الأنبياء الذين يزعمون أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء تابعًا لهم.

ولم يكن ذلك خافيًا على النصارى، كما قَرَّرنا قبلًا.

لذلك فقد حاولوا أن يُقِيموا جِسرًا بين العقيدتين، وأن يصنعوا نوعًا من التوفيق بين عقيدة التوحيد التي دعا إليها جميع الأنبياء السابقين، وعقيدة الشرك والتعدُّد التي دعا إليها شاءول أو بولس فاعتنقها النصارى بعد ذلك.

وقد سلكوا إلى ذلك طريقين:

الطريق الأول: القول بتلك العقيدة الغريبة التي اخترعها شاءول أو بولس الرسول- كما يدعونه- وفي هذه العقيدة حاولوا الجمع بين عقيدة الشرك، وهي القول بثلاثة آلهة، وعقيدة التوحيد التي دعا إليها الأنبياء، وقد حاولوا المزج بين العقيدتين وخلطهما معًا؛ لتخرج منهما عقيدة واحدة هي مزيج من الشرك والتوحيد.

ولأن ذلك أمرٌ محال لا يتحقق أبدًا؛ لأنه جمعٌ بين النقيضين، انتقلوا إلى أكذوبة أخرى أشدَّ ضلالًا من الأولى؛ فزعموا أن عقيدتهم هذه هي حقيقة للإيمان، وليست للعقل، أو الفهم، وبذلك قرَّروا أنَّ بين العقل والإيمان تناقضًا، وهذه الأكذوبة وإن كانت فرعًا عن الأكذوبة الأولى، إلا أنها أشدُّ خطرًا منها، وأَدْخَلُ في باب الكفر والضلال؛ لأننا إذا قرَّرنا مبدأ الإيمان بأية عقيدة دون عرضِها على العقل وإقراره إيَّاها، بل مع رفضِهِ إياها؛ فما الذي يجعلنا نقبلُ عقيدةً ونرفضُ أخرى؟ وبناءً على ماذا نَقبل أو نرفض؟ وما الـمُسوِّغ للقبول أو الرفض؟ وأي ضمان يكون لدينا في سلامة العقيدة التي نعتقدها؟

إننا إذا أخرجنا العقلَ- من ميدان الكلمة في قبولِ أو رفضِ العقائد- بطلت قضية الإيمان جملةً؛ لأن الإيمانَ بهذه العقيدة لن يكونَ له ما يُبَرِّرُه، ورفض تلك لا يكون له ما يبرره[1].

---

(١) العقل لا يدرك كلَّ الأمور الغيبية، لكنه يدرك- بالطبع- أن لهذا الكون خالقًا واحدًا كاملًا.

وهكذا نرى أن الأكاذيب يُسلِّم بعضُها إلى بعض؛ فقد أَسلمَتْ كذبةُ التثليث في التوحيد إلى كذبةٍ أخطرَ منها وأضلَّ، وما تزال أكاذيب القوم تَتْرَى في تسلسلٍ لا يكاد ينتهي.

الطريق الثاني: اللجوءُ إلى التأويل والتحريف والخلط؛ فقد حاولوا- وما زالوا يحاولون- أن يجدوا لهذه العقيدة الباطلة- عقيدة التثليث- أصولًا وجذورًا في دعوات الأنبياء السابقين، وبخاصة لدى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في التوراة المنزلة عليه؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو النبي الرسول الذي جاء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تابعًا له، ومِن ثَمَّ فقد ذهبوا إلى أن جذور تلك العقيدة موجودة في توراة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ- تلميحًا لا تصريحًا، وأن الله- تعالى عما يقولون- قد أعلن عن كونه ثلاثةً، أو عن حقيقته الثلاثية في الكتب السابقة، ولكن بطريقٍ ضمنيٍّ.

وهذا عالم من علمائهم يوضح ذلك، فيقول: «بعد أن خلق الله العالم وتوَّجَ خليقَتَهُ بالإنسان، لبث حينًا مِن الدَّهر لا يعلن له سوى ما يختصُّ بوحدانيته، كما يتبين ذلك من التوراة، على أنه لا يزال المدقِّقُ يرى بين سطورِها إشعاراتٍ وراء الوحدانية؛ لأنك إذا قرأتَ فيها بإمعانٍ تجد فيها هذه العباراتِ: كلمة الله- حكمة الله- روح القدس، ولم يَعلم مَن نزلَتْ إليهم التوراةُ ما تُكِنُّهُ تلك الكلماتُ من المعاني؛ لأنه لم يكن قد أتى الوقتُ المعين الذي قَصَدَ الله فيه إيضاحَها على وجه التفصيل»(١).

هكذا يظن ذلك الْقَسُّ من النصارى أنه وصل إلى حلِّ القضيةِ كلِّها، وأن الله- تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا- قد أَخبر عن حقيقته الثلاثية في الكتب السابقة

(١) القس بوطر، رسالة الأصول والفروع (ص٤٣- ٤٤).

المنزلة على الأنبياء السابقين في إشارات واضحة، غير أن الأنبياء السابقين لم يفهموا تلك الإشاراتِ في الكتبِ المنزَّلة عليهم، وفَهِمَها ذلك القِسُّ الذَّكِيُّ الذي فهم من كتب الأنبياء ما لم يَفهَمِ الأنبياءُ أنفسُهم؛ فانظر إلى أي حدٍّ وصل الضلال والحمق في مسلسل الأكاذيب بهؤلاء القوم. والذي لم يخبرنا به ذلك القِسُّ غيرُ الذَّكِيِّ، لماذا لم يعلن الله تعالى حقيقته تلك للأنبياء جميعًا؟ وما السِّرُّ في أن الله-تعالى- أخفَى حقيقتَهُ الثلاثيةَ على الأنبياءِ وجعلهم يَعتقدون أنه واحدٌ بينما هو ثلاثة؟ وبذلك عاش الأنبياءُ السابقون وهم يجهلون مَن يعبدون ومَن يدعون إلى الإيمان به، وكانت دعوتُهم لا تُعلِنُ الحقَّ، بل تعلنُ خلافَهُ، والمفروض أنهم صادقون هادون.

والذي يجهله ذلك القِسُّ وأمثالُهُ: أن العقائد في الأديان إنما هي أخبار، والخبر لا يَحتمِلُ إلا واحدًا من أمرين، إمَّا الصدق وإمَّا الكذب؛ لذلك كانت العقائد في الرسالات واحدةً، ولا تَحتمِلُ تطويرًا ولا تغييرًا، فإذا ما أَخبر نبيٌّ بحقيقة عقدية، ودعا إليها، فتلك الحقيقة إمَّا صدقٌ وإمَّا كذب، والنبي في ذلك إمَّا صادق وإمَّا كاذب، ولا يوجد وجهٌ ثالثٌ في الأمر كلِّه، وبخاصة إذا كانت تلك الحقيقةُ تتصل بالله- سبحانه- ذاتًا وصفاتٍ.

وقد عرفنا أن الأنبياء السابقين قد آمنوا بالله الواحد، ودعوا إلى الإيمان به- سبحانه- ومهما حاول القوم مِن جمعٍ أو خلطٍ أو تقريبٍ بين التوحيد- الذي هو عقيدة الأنبياء جميعًا- وذلك الشرك- الذي هو عقيدتهم- فلن يفلحوا في قليل أو في كثير، وسيظلون على ضلالهم هذا ما داموا يَعتنقون دينًا يرفضه العقلُ السليم، وتنبذه الفطرة السوية، وما عليهم إلا أن يَرفعوا غمامَةَ الوثنية عن عقولهم حتى تتبين لهم الحقيقة في نصاعة الصباح، تلك الحقيقة التي تُقَرِّرُ أنَّ دينَهُم باطلٌ باطلٌ.



القِدَمُ

والقدم ليس هو الصفة الشرعية لله تعالى بل الصفة الشرعية: «الأول» كما وردت في القرآن الكريم في قوله -تعالى-:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

ولكنَّا آثرنا أن نكتبها «القدم» لما أن القوم ألفوا أن يكتبوها هكذا، ولأن هنالك من المشاكل ما هو أدخل في الضلال من الخلاف اللفظي.

والقِدَمُ هو أخصُّ صفات الإله؛ فالإله الذي خلق كل شيء ودبَّر أَمْرَهُ بدهيٌّ أن يكون قَبلَ كل شيء؛ إذ لو كان حادثًا ما صلح أن يكون خالقًا لما سبقه أو سَاوَقَه من الحوادث، ولو كان حادثًا لكان محتاجًا إلى مُحْدِثٍ، ولكان مُحْدِثُهُ أَوْلَى منه بوصفِ الألوهيةِ، هذا إذا كان مُحْدِثُهُ قديمًا، أمَّا إذا كان هو الآخَرُ حادثًا فيُنظر في مُحْدِثِهِ، ويستمر الأمر بحثًا في سلسلة الحوادث، حتى تنتهيَ السلسلة ضرورةً إلى مُحدِثٍ ليس حادِثًا، فذلك (الذي هو قبل كل شيء وليس قبله شيء هو الأول سبحانه وتعالى) الذي خلق كلَّ شيءٍ ودبَّر أَمْرَهُ.

والقِدَمُ معناه: أن الإلهَ لا أَوَّلَ لوجوده، أو ليس لوجوده بداية، أي: حدٌّ ابتدأ

منه. وهذا المراد بقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣] وهو المراد بقول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كان اللهُ ولم يَكُنْ شيءٌ قَبْلَهُ**» [1].

وصِفةُ القِدَمِ من الصفات التي اصطُلِحَ على تسميتها «سلبية»، أي: أنها لا تضيفُ معنًى إلى الذات الإلهية، ولكنها تنفي عن الذات الإلهية نقيضَ معناها، ونقيضُ معناها يُفيدُ النقصَ؛ فهي تنفي ذلك النقصَ عن الذات الإلهية، والنقصُ الذي تنفيه صفةُ القِدَمِ هو «الحدوثُ»؛ فالذات الإلهية ليستْ حادثةً، بل هي قديمةٌ.



(١) أخرجه البخاري(٧٤١٨).

عند اليهود

يعتقد اليهود أن الذات الإلهية قديمة، وأن الإله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قديم لا أوَّلَ لوجوده، وأنه تعالى كان ولم يكن شيء معه، كان قبل الأشياء كلِّها، ثم خلق الله الأشياء من العدم بكلمة: «كن» أو: «فليكن»، كما ورد في رأس أسفارِهم، وهو: سفر التكوين.

عقيدة اليهود- إذن- في إثباتِ صفةِ القِدَمِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عقيدةٌ صحيحةٌ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك عند الحديث على صفة «الوجود» عند اليهود.



عند النصارى

يَعتقد النصارى أن آلهتَهُمُ الثلاثةَ- الآب، والابن، والرُّوح القدس- قدماء، وهم يزعمون ذلك رغم أنهم يؤمنون بأن اللهَ الأبَ كان موجودًا قبل الإلهِ الابنِ والإلهِ الرُّوحِ القدس، ثم شعر الأبُ بحاجته إلى الابن فأوجد- أو وَلَدَ- الابنَ ليؤنسَهُ ويتبادلَ معه المحبةَ، التي هي أخصُّ صفات الألوهية- كما يقولون-. والتي لا يمكن أن تتحقَّقَ إلا بين اثنينِ على الأقلِّ؛ ولذلك احتاج الإله الأبُ إلى الإله الابنِ لكي يُفيض عليه محبته، فأوجده وأفاض محبته عليه، ثم بادل الإلهُ الابنُ أباه محبةً بمحبةٍ، فنشأ مِن المحبة المتبادَلة بينهما إلهٌ ثالثٌ هو الإلهُ الرُّوحُ القدس.

هذه عقيدتُهم- كما يُصوِّرونها ويَشرحونها- وقد أوضحنا- سابقًا عند الكلام على صفة الوجود عند النصارى- أن القديم هو اللهُ الأبُ، وأمَّا الإلهُ الابنُ والإلهُ الرُّوحُ القدس فهما حادثان ذاتًا وزمانًا، وهذا حُكْمُ العقل والواقع، وإن كان ذلك لم يقع حقيقةً، ولكن على التسليم بصحة ما يعتقدون؛ فإن الإله القديم هو الأبُ فقط، وأما الابنُ والروحُ القدس فحادثان بناءً على عقيدتِهِم أنفسِهِم.

وإذا كان القِدم هو أخص صفات الألوهية- كما بينا قبل ذلك-؛ فإن الإله الذي

يستحق تلك الصفةَ، وتصدق عليه هو الإلهُ الأبُ فقط، أمَّا الا بنُ والروحُ القدس فلا يَصدُقُ عليهما أنهما إلهانِ، لِمَا أنهما حادثان، والحادث لا يكون إلها بأيِّ حالٍ.

وقد ذكروا هم أنفسهم أن السّبب في وجود « الإله الابن»؛ أن الله الآب هو في حقيقته «محبّة»، وأن المحبّة من طبيعتها أن تفيض على شخصٍ ثان، لذلك احتاج الإله الآب إلى الإله الابن ليفيض عليه من محبته، لذلك «ولد الله الآب الله الابن منذ الأزل»، هذا ما قالوه بنصِّه.

ويبقى أن نقرر أن هذا الذي قرروه هم يؤدّي ببديهة العقل إلى أن الله الآب كان قبل وجود الإله الابن، وإلا فمتى شعر الآب بحاجته إلى الابن ليفيض عليه من محبته، فأسبقية الآب على الابن قضية بدهية لا يجادل فيها حتى الْبُلْهُ والـمَعَاتيه ومن هم بمشفيات المجانين، ثم إن أسبقية الاثنين للثالث أمر بدهي -كذلك- لأنهم يقررون أنه منبثق من الاثنين، وبعضهم يقول إنه منبثق من الآب وحده، وعبارة: «منذ الأزل» هذه تعتبر عبثًا لا طائل تحته، فهي لا تحرم حلالًا ولا تحل حرامًا، ولا تفيد شيئًا.





صفة البقاء

وصفة البقاء تعني: عدمَ انتهاء الوجود، أو عدم فناء الذات الإلهية؛ فالذات الإلهية موصوفة بالبقاء الذي لا نهاية له؛ فلا يأتي حال تفنَى فيها الذات الإلهية، أو تنعدم أو ينقطع وجودها.

وهذه الصفة من الصفات السلبية التي لا تضيف معنًى زائدًا على الذات الإلهية، ولكنها تعني سلب أو نفي نقيضها عن ذات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فوصف الإله بالبقاء يعني: نفيَ الفناء عنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وصفة «البقاء» ذات صلة قوية بصفة «القِدَمِ»؛ بل هي متفرعة عنها ومبنية عليها، فلا بقاء إلا للقديم، على معنى أن ما ثَبت له صفة القِدَمِ يَثبتُ له صفةُ البقاء، أما الحادث فمن المحال أن يبقَى ويدومَ لذاته، أو بذاته؛ ذلك أن القديم هو ما لم يكن معدومًا، ولا يَقبل العدمَ، فوجوده عينُ ذاته، وهذا يعني: أن الوجود داخِلٌ في ماهيته، مأخوذٌ في اعتبار ذاته، والأمور التي تلحق الشيءَ لذاته لا تنفكُّ عنه، ولا ينفكُّ عنها؛ فالتلازُمُ بينهما حَتمِيٌّ، وهذا معنى قولهم: «ما بالذات لا يَتخَلَّفُ».

أما الحادث فلا يوصفُ بالبقاء لذاته؛ لأن الوجود ليس تمامَ ماهيته، وليس

جزءَهَا. بدليلِ أن الحادث لم يكن، ثم كان، أي: أنه كان معدومًا، ثم وُجِدَ؛ فالوجود- إذن- منفصِلٌ عن ماهيته، والتلازُمُ بينهما منفكٌّ، فبقاؤه لذاته أمرٌ محالٌ؛ ذلك أنه يحتاج في وجوده ابتداءً إلى غيره، فمن باب أولى هو محتاج إلى غيره في حفظ ذلك الوجود واستمراره.

والبقاء نوعان: بقاء بالذات، وبقاء بالغير.

والبقاء الموصوف به الذات الإلهية، أو الذي هو صفة لله- سبحانه- هو البقاء بالذات، وليس البقاء بالغير.

أما الحادث فإن بقاءه لذاته محال- لما بينَّا قبلًا- ولكن يمكن أن يبقَى مستنِدًا في بقائه إلى غيره، فيكون بقاؤه واجبًا لغيره، وليس لذاته، بمعنى: أن بقاءَهُ مستمَدٌّ مِن غيره، وهذا البقاء هو من صفات الحادث، وليس من صفات القديم الذي هو الله- سبحانه-. ومن أمثلة البقاءِ بالغير- الذي يمكن أن تتصف به الحوادث- البقاءُ الموصوفة به الجنة، والبقاءُ الموصوف به أهلُها- عند القائلين ببقائهما وخلودهما أبدًا- وهي عقيدة السلف والخلف، والمعارِضُ شاذٌّ.

إذا عرفنا هذا؛ فماذا نحن واجدون عند اليهود والنصارى فيما يتصل بهذه الصفة؟ -صفة البقاء-



عند اليهود

عرضنا- فيما سبق- لعقيدة اليهود في الذات الإلهية، وعرفنا أن اليهود يعتقدون في وجود الذات الإلهية، ويعتقدون في قِدَمِ الذات الإلهية قِدمًا مطلقًا، بمعنى: أن الله تعالى قديم ذاتًا وزمانًا، فهو قديم ذاتًا، والقِدَمُ الذاتي يعني: أن وجوده تعالى من ذاته أو لِذاته. وبهذا يكون وجودُهُ عينَ ذاته، وليس شيئًا زائدًا على الذَّاتِ، كما بَيَّنَّا سابقًا.

وهو- سبحانه- قديم زمانًا، وهذا يعني: أن وجوده تعالى سابق على وجود الأشياء، فهو تعالى كان ولم يكن شيء قبله، ثم أوجد الأشياء على مقتضَى علمه وإرادته.

ينبني على ما ذَكرنا ثبوتُ صفةِ البقاء لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن وجودَهُ عينُ ذاته، وما كان الوجودُ عينَ ذاته امتنع الانفكاكُ بين الذات والوجود؛ ولأن ما ثبت قِدَمُهُ استحال عَدَمُهُ.

اليهود- إذن- يُثبتون لله تعالى صفةَ البقاء، كما أثبتوا له مِن قبلُ صفةَ القِدَمِ.

عند النصارى

عرفنا أن النصارى يؤمنون بثلاثةِ آلهةٍ: الله الآب- الله الابن- الله الروح القدس، وقد سبق أن شرحنا هذه العقيدة، ودرسناها دراسةً تحليلية تفصيلية، ووصلنا من خلالها إلى إثبات أن القديم في آلهة النصارى الثلاثة إنما هو الإلهُ الأبُ فقط، وأمَّا الإلهان الثاني والثالث فهما حادثان ذاتًا وزمانًا. إنما نقول هذا مجاراة للخصم في باطله ،وإلا ففساد هذه العقيدة غني عن إفساده .

أما حدوثهما ذاتًا؛ فلأنهما يستندان في وجودهما إلى الإلهِ الأبِ؛ فهو الذي أوجد الإلهَ الابنَ والإلهَ الرُّوحَ القدس، وأما حدوثهما زمانًا؛ فلأنهما لم يكونا موجودَينِ، ثم أوجدهما الإلهُ الأبُ، أوجد الإلهَ الابنَ أولًا، ثم أوجد الإلهَ الرُّوحَ القدس في مرحلة تالية، وهذا الذي نقوله إنما هو عقيدة النصارى التي يعتقدونها جميعًا بلا استثناء- كما أثبتنا ذلك سابقًا.

وإذا ما ثبت أن الإله الابن، والإله الروح القدس حادثان؛ فقد ثبت استحالةُ بقائِهما لذاتِهما؛ لأنهما محتاجان إلى غيرِهما في أصلِ وجودِهما، فمِنْ بابِ أَولى

يحتاجان إلى غيرِهما في الإبقاءِ على هذا الوجود واستمرارِهِ.

ومجاراةً للخصمِ في باطله وإلزامه بالحق بعد إبطال باطله نقول: قد يتصف أحدهما أو كلاهما بالبقاء الذي يستندان فيه إلى غيرهما، فيكون كلٌّ منهما موصوفًا بالبقاء لغيره، وليس لذاته.

وهذا البقاءُ يمكنُ أن تتصفَ به الحوادث على مقتضى إرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والبقاء بهذا المعنى لا يكون صفةً للإله؛ فإن الإله قديم ضرورةً، والقديم يمتنع وصفه بالصفات الحادثة؛ لأنه ليس محَلًّا للحوادث.

والصفة التي معنا صفة قديمة لا يتصف بها إلا القديم.

وهذا يوضح لنا أن عقيدة النصارى في صفة البقاء وصفًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي عقيدة باطلة؛ حيث يثبتونها لله، وللابن، وللروح القدس على سواء، وهذا ضلال مبين.





صفة العلم

من الصفات الواجبة للذات الإلهية: صفةُ العلم. وصفة العلم من الصفات التي لا يُعارِضُ أحد من المتدينين في إثباتها للذات الإلهية التي يدين لها؛ فكل ذي دين يثبت تلك الصفة لإلهه، أيًّا كان ذلك الإله.

وهذا أمرٌ بدهيٌّ؛ فإن الذي يؤمن بذاتٍ إلهيةٍ خَلَقَتِ العالَـمَ، وأبدعتْ صُنعَهُ، ودبَّرتْ أمرَهُ، يلزمه- بداهةً- أن يُثبتَ لتلك الذاتِ الإلهية الخالقة المبدعة المدبِّرة صفةَ العلم؛ إذ يستحيل- بداهةً- أن ينشأ هذا العالَـمُ عن ذات جاهلة، كذلك فإننا إذا أَجَلْنَا أبصارَنا وبصائِرَنا في هذا الوجود- جملةً أو تفصيلًا- فإننا واجدون أثرَ العِلْمِ الإلهيِّ في دقَّتِهِ ولطفه، وفي سعته وشموله، ناطقة به كلُّ جزئية في هذا العالم، في توافقه وتناسقه، وفي تنظيمه وحُسْنِ تدبيرِهِ، كلُّ شيء في العالم له هدف واضح يسعَى فيه، ويسعى إليه، حيًّا كان أو جامدًا، والكلُّ يؤدِّي دورَهُ بدقَّةٍ ونظام، وكلُّ جزئية تعطي الكلَّ وتأخذ من الكلِّ، والكلُّ- في جملته- مؤثِّر ومتأثِّر، علَّة ومعلولًا، لا تجد شذوذًا ولا نشازًا، والعالم كلُّه قد نُظِمَ- في جملته

وتفصيله- بعناية بلغتِ الغاية، دقَّةً ونظامًا وحُسنَ تدبيرٍ حتى عبَّر البعض عن ذلك بقوله: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»[(١)].

كذلك، فإن الإنسان ذلك المخلوق الذي خلقه الله وسوَّاه وعَدَّله، وركَّبه في تلك الصورة الحسنة التي شاءها له العليمُ الخبير- هذا الإنسان يمتاز على المخلوقات الأخرى بالعقل والإدراك، ويمتازُ بحصيلة لا بأسَ بها من المدرَكات المكتسبة المختزَنة لديه، والتي يُطلَق عليها العِلمُ، أو المعلومات التي يكون بها العلم، فإذا كان ذلك الإنسانُ العالِـمُ الذي اكتسب صفةَ العلم، وصارت أهمَّ مفاخِرِهِ، هو صنعة الله تعالى وأثرًا من آثار قدرَتِهِ؛ فبدهِيٌّ أن يكون خالقُهُ متصفًا بصفة العلم؛ إذ مِن الـمُحال أن يَمنحَ العِلمَ مَن ليس بعالم، فإنَّ فاقد الشيءِ لا يُعطيه، فالإنسانُ العالِـمُ هو أقربُ الأدلة وأوضحها على اتصاف خالقه بصفة العلم.

وعلم الله تعالى يختلف عن علم الإنسان بأمورٍ، أهمها:

١- أن عِلمَ الله تعالى قديمٌ، وأمَّا علم الإنسان فحادثٌ.

٢- أن عِلمَ الله- سبحانه- ذاتيٌّ، وأما علم الإنسان فغيريٌّ؛ فهو منحة من الله

---

(١) وهو تعبير خطأ لفكرة خاطئة ضالة؛ لأن قدرة الله -تعالى- ومن قبلها إرادة الله -سبحانه- لا يجوز حصرها في أوضاع معينة، ولا يجوز القطع بأن الإمكان أمام إرادة إله وقدرته محصورة في هذا الواقع، وأن اوضاعا معينة هي منتهى إمكانات الله إرادةً وقدرةً وواقعًا، فإن هذا حصر لفعل إله وقدي على إرادته وقدرته، بما هو واقع، والله تعالى هو القائل: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[هود: ١٠٧]، وهو القائل سبحانه عن قدرته: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر: ٦].

وقد كان بالإمكان بحول الله تعالى أن نحذف هذه العبارة الخاطئة ولكنا أثرنا أن نضعها، ونعلق على خطئها وضلالها حتى يكون في ذلك فائدة وتنبيه وتعليم، والله من وراء القصد.

تعالى الذي خلق الإنسان ومنحه السمع والأبصار والأفئدة، يقول تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥]، وقال تعالى لرسوله- أعلم أهل الأرض- صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]

٣- أن عِلمَ الإنسان محدود، أمَّا علم الله تعالى فمحيطٌ بكلِّ شيء، لا يَعزُبُ عنه شيء في السموات، ولا في الأرض.

٤- أن عِلمَ الإنسان معلولٌ، وأمَّا علم الله تعالى فهو علَّة في المعلومات؛ فالله- سبحانه- قد علم كل شيء قبل أن يوجَدَ شيء، والأشياء إنما توجد وتفنَى على مقتضى علم الله- تعالى.

٥- أن عِلمَ الله تعالى ثابت، وأما علمُ الإنسان فمتغيِّر، زيادةً ونقصًا، صوابًا وخطأً.

وهذه أهمُّ الفروقِ بين علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلم الإنسان، وبالجملة نستطيعُ أن نقولَ: إن الفرق بين العِلمين هو الفرق بين الخالق والمخلوق، وإنه ليس بين العلمين مِن صلة، وليس بينهما من تشابه إلا في الاسم فقط.



عند اليهود



يثبت اليهود صفة العلم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعتقدون أن الله تعالى بكلِّ شيء عليم، وأنه تعالى لا يَعزُبُ عن علمه شيء.

وهذه عقيدة صحيحة، لكنَّ اليهودَ لم يقفوا عند هذا الحدِّ؛ بل أضافوا إلى اعتقادِهِم في علم الله- سبحانه- عقيدةً أخرى أَفْسدَتْ عقيدتَهُم في علم الله تعالى ونقضتها؛ بل أحالتْ علمَ الله تعالى الذي يعتقدون فيه إلى جهل- تعالى الله عما يقولون-.

ونعني بتلك العقيدة الأخرى- التي يعتقدونها قيدًا على عقيدتهم في علم الله-: عقيدةَ «البَدَاءِ»، وعقيدةُ البداءِ يؤمن بها اليهودُ جميعًا، يُقِرُّ بها بعضُهم ويلتوي بها آخرون، ولكنَّ واقعَ الأمرِ أن هذه عقيدتهم جميعًا لا يَشُذُّ عنها أحد منهم، نطقت بها كتبُهُم المقدسةُ في نصوصٍ قطعيةٍ لا تَحتَمِلُ التأويلَ.

والناظر في أسفار التوراة اليهودية المحرَّفة يراها مليئةً بالنصوص التي تتحدث عن أن الله- تعالى عما يقولون- قد نَدِمَ على خلقه آدَمَ، وتمنَّى أن لم يكن

خَلَقَهُ؛ لأنه ما كان يعلمُ تلك الشرور التي سوف تنشأ عن خَلقِهِ آدمَ.

وكذلك يتحدَّثُ سفر الخروج عن أن الرَّبَّ- تعالى عما يقولون- قد ندم على خَلْقِهِ شعبَ إسرائيلَ، ثم أراد أن يضربَ الشعبَ فيقضي عليه؛ لأنَّ الرَّبَّ ما كان يعلم الشرورَ التي سوف يقوم بها الشعب.

ولكن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يراجع الرَّبَّ ويذكِّره بوعده إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ويقول موسى للرَّبِّ: «ارجع عن حموِّ غضبِكَ، واندم على الشَّرِّ الذي أردتَهُ بشعبِكَ، واذكر وعدك لإبراهيم نبيك». فيتذكر الرَّبُّ وَعْدَهُ لإبراهيمَ، ويرجع عن غضبه، وعمَّا نواه بشعب إسرائيل، وهكذا يتضح لنا أن النصوص القطعية في أسفارهم المقدسة ناطقةٌ بهذه العقيدةِ (عقيدةِ البداءِ) في وضوح وجلاء.

فالرَّبُّ خلق آدمَ طلبًا لمصلحة، والتماسًا لحكمة حسب علمه، لكن اتضح له بعد ذلك أنَّ خَلْقَ آدمَ كان خطأً كبيرًا، وأنه لم يحقق حكمة ولا مصلحة؛ لذلك ندم- تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-.

وكذلك خلق اللهُ شعبَ إسرائيلَ لِـمَا علمه من حكمةٍ ومصالحَ تتحقق بخلق ذلك الشعبِ، ثم بدا له بعد ذلك أنَّ خَلْقَهُ ذلك الشعبَ كان ضدَّ الحكمة، فأراد أن يقضِيَ عليه، فذكَّره موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه قد وعد إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإبقاءِ على الشعبِ وتفضيلِهِ على العالمين، فبدا له مرةً ثانيةً أن يرجع عن عزمه السابق، فرجع عنه؛ فالبداء- إذن- أمرٌ مقرَّرٌ في عقيدتهم لا يَختلِفُ على ذلك أحد.

والبداءُ معناه: «أن يقضِيَ اللهُ أمرًا في الأزل يرى فيه حكمة وصلاحًا، ثم يبدو لله- تعالى عن ذلك- بعد هذا أن الحكمة والصلاح هما في خلاف ما قضى قبلًا؛

فيُغير من قضائه السابق تبعًا لما يرى من حكمة لم تكن معلومة له قبلًا».

وهذه العقيدة- كما هو واضح- هي نقضٌ لهذه الصفةِ (صفةِ العلمِ) التي زعم الذين كفروا أنهم يؤمنون بها صفةً من صفات الله ﷻ.

وعقيدةُ البداءِ عقيدةٌ فاسدة لا تُفهَمُ إلا في إطارِ واحدٍ من احتمالين:

الأول: أن يكونَ اللهُ- تعالى عن ذلك- لا يعلم الأشياءَ أزلًا، وقد قَدَّرَ عن جهلٍ- تعالى عن ذلك- فلما علم الأمرَ حينَ وقوعِهِ بدا له أن يُغيِّرَ من قضائه السابق.

وهذا محال؛ فالله تعالى عليم بكلِّ شيء، وقد سبق أن دلَّلنا على ذلك، واليهودُ أنفسهم قد أثبتوا لله تعالى صفة العلم، وأقرُّوا بها.

الثاني: أن يكونَ الله تعالى عالـمًا بكلِّ شيءٍ، وقد علمَ المصلحةَ والحكمةَ، ولكنه تعالى قد قضى على خلاف الحكمةِ مع علمه بذلك، ثم بدا له أن يغيرَ قضاءَهُ ليصيبَ الحكمة بعد ذلك.

فيكون مقتضَى ذلك أن يكونَ- تعالى الله علوًّا كبيرًا- متصفًا بالحمقِ بعد أن كان متصفًا في الاحتمال الأول بالجهل- تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- وكِلَا الاحتمالين باطلٌ، كما هو واضح.

وإذا كان الله تعالى قد أراد كلَّ شيءٍ وقدَّره أزلًا؛ فإن البداء الذي هو تغيير القدر السابق الأزلي إلى قدرٍ آخَرَ حادث يترتب عليه واحد من أمور ثلاثة، كلها محال بجانب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأمر الأول: أن يكون التقدير الحادث أفضلَ من التقدير السابق، فيكون التقدير السابق خاليًا مِن الحكمة، على أحد احتمالين بيَّناهما سابقًا.

وذلك نقصٌ محالٌ بالنسبة إلى الله تعالى؛ لِمَا يترتب عليه من جهلٍ أو حمقٍ.

الأمر الثاني: أن يكون التقدير الأزلي السابق محققًا للمصلحة، على خلاف التقدير الحادث، وذلك محالٌ؛ لأنَّ في تركِ التقدير السابق المحقِّق للحكمة إلى تقدير جديد لا يحقق الحكمة حمقًا لا يليق بكمال الألوهية.

الأمر الثالث: أن يكون التقديران متماثلين في تحقيق الحكمة والمصلحة، فيكون التغيير عبثًا، وهو محال، لا يليق بجلال الله -تعالى-.

ويُلاحَظُ أن ثمةَ احتمالًا رابعًا، وهو أن يكون التقديران خاليين من الحكمة، وهو احتمال مرفوض؛ حيث قد سبق وأثبتنا أن تقدير الله -تعالى- لا بدَّ أن يكون محقِّقًا للمصلحة والحكمة.

كما يلاحظ أن الاحتمال الثالث هو احتمال فرضيٌّ لا يتحقق؛ ذلك أن تقدير الله تعالى أمرًا من الأمور لا بدَّ وأن تتحقق فيه الحكمة التي على أساسها كانت إرادة الله إياه، فإذا ما وُجد مثيل لهذا المقدور بطلت حكمة الله في اختياره أحد الأمرين دون الآخَرِ -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-

مما تقدم يتضح لنا بطلان عقيدة البداء التي يقول بها اليهود، كما يتضح لنا أن ادِّعاءَهم الاعتقادَ بأن الله عليم بكلِّ شيءٍ هو ادِّعاء باطل؛ حيث إن الاعتقاد بالبداء ينفي عن الله -سبحانه- صفةَ العلم، ويصفه بالجهلِ حينًا، وبالحمقِ أحيانًا، -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-.

عند النصارى

عرفنا أن النصارى يؤمنون بآلهة ثلاثة، وأن الإلهَ الابنَ، والإلهَ الروحَ القدس حادثان ذاتًا وزمانًا، وهذا يعني: أن الإلهين غيرُ متصفين بالعلم الأزليِّ؛ إذ كيف يكون الموصوف حادثًا وصفته قديمة؟ يبقَى أنَّ «اللهَ الأبَ»- فقط- هو القديم، ويمكن أن يتصف بصفة العلم الأزليِّ القديم، فما موقف النصارى بالنسبة لإثبات صفة العلم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

ابتداءً نقرِّر أن النصارى مؤمنون بالتوراة اليهودية المحرَّفة التي بين أيدي القوم، وعلى ذلك فإن كل ما قلناه عن اليهود فيما يتصل بصفة العلم، هو صادق على النصارى- أيضًا- من حيث إن كتاب اليهود هو كتاب النصارى، أو هو من كتبهم المقدسة، وأن شريعة اليهود وعقائدهم هي شريعة للنصارى وعقيدة لهم- أيضًا- كما سبق أن أوضحنا ذلك.

نأتي بعد ذلك إلى ما يخصُّ النصارى وليس موجودًا عند اليهود.

الناظر في عقائد النصارى يرى أنها- في أساسها- قائمة على تجريد الله- تعالى

عن ذلك- عن صفة العلم تجريدًا كاملًا وواضحًا، ووصفه- سبحانه- بنقيض ذلك من الجهل، والحيرة، والتردد، والعجز عن تدبير شئون العالم: لجهله بالحكمة وعجزه عن الوصول إليها.

وأساس عقائد النصارى هي عقيدة الصَّلبِ (صَلبِ المسيحِ الرَّبِّ)، التي نشأ عنها إيمانُهم بالتثليث، وتقديسُهم الصليبَ، واعتقادُهم في الخطيئة، وانتقالها من الآباء إلى الأبناء، إلى آخِرِ عقائِدِهم التي تقوم في أصلها على الإيمان بقضية الصَّلبِ والفداء.

وعقيدة الخطيئة والصَّلب والفداء لا تصحُّ إلا مع التسليم بوصف الإله- جل وعلا- بالجهل، والحيرة، والعجز عن تدبير العالم، ولكن كيف ذلك؟

إنهم يزعمون أن الله تعالى نهى آدمَ عن الأكل من الشجرة، فعصى آدَمُ وأكل منها، وقالوا: لقد فوجئ الرَّبُّ بذلك، ثم أخذ يبحث عن حلٍّ للمشكلة الكبيرة التي ما كان قد فكَّر فيها، ولا دبَّر أمْرَها؛ لأنه ما كان على علم بها قبلًا، تلك المشكلة هي: هل يعاقِبُ آدمَ على خطيئته؟ أو يعفو عنه؟ وما كان يمكن للرَّبِّ أن يُنفذَ واحدًا من الأمرين؛ لاستحالة ذلك؛ فإن العفو يُحقق صفة الرحمة في الرَّبِّ، ولكنه يُبطِلُ صفةَ العدل ويُعارِضُها، بينما العقابُ يحقق صفةَ العدل، لكنه يناقض صفةَ الرحمة ويُهْدِرُها؛ لذلك تحيَّرَ الرَّبُّ فترةً من الزمن، وهذه الفترة استغرقتْ آلافًا من السنين تزيد على أربعةِ آلافٍ بحساباتهم هم.

فانظر إلى ما تتمخَّضُ عنه هذه الأفكارُ الفاسدة والعقائد الباطلة؛ فهي تثبت أمورًا للذات الإلهية، أهمها:

١ - الجهل بما يكون؛ فإن الله- تعالى عن ذلك- قد فوجئ بما وقع من عصيان

آدمَ، وما ترتب على ذلك من التضارب بين صفتين من صفاته، أو بين ما تقتضيه هاتان الصفتان، وهذا واضح؛ إذ لو كان الإله على علم سابق بعصيان آدمَ لفكَّر في الأمر، وأعدَّ له عدته، ورتَّبَ له الحلَّ، وما كان انتظر حتى تقعَ المعصية، ثم يتحير في كيفية حلِّها كُلَّ هذه الآلافَ من السنين، مع ما ترتَّبَ على إرجاءِ حلِّها من تعذيبٍ للخلق جميعًا مِن زمنِ آدمَ حتى المسيح عليه السلام.

٢- **الحيرة والتردد**، وهذا مقرَّر بوضوح وجلاء في عقائد القوم؛ فقد قرَّروا أن الرَّبَّ حين وقعتِ المعصيةُ من آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد قضى آلافَ السنين وهو في حيرة وتردد، لا يدري ماذا يفعل ليوفِّقَ بين مقتضى عدله ورحمته، ويَحُلَّ الإشكال الكبير، وأخيرًا بعد أربعةِ آلافِ عامٍ ونيِّف وصل إلى حَلٍّ لهذا الإشكال الذي قضى تلك الآلافَ من السنين بحثًا عنه.

٣- **العجز عن تدبير شئون الخلق**؛ فإنهم يقررون أن الإله- سبحانه- قد قضى آلاف السنين بحثًا عن حلٍّ، وكان طوال هذه السنين عاجزًا عن العثور على ذلك الحلِّ. وتوصُّلُ الرَّبِّ إلى الحلِّ وعثورُهُ عليه بعد هذه الآلافِ دليلٌ على أن الحلَّ كان موجودًا طوال هذه السنين؛ فالحلُّ لم يكن محالًا، بل كان ممكنًا وموجودًا، ولكن الرَّبَّ كان عاجزًا عن الوصول إليه طوالَ هذه الآماد الطويلة، وهذا هو العجز عن تدبير شئون الخلق: آدمَ وبنيه.

أما عن آدمُ؛ فقد عجز الربُّ عن إيجاد حلٍّ لمشكلته، فأرجأها أربعةَ آلافِ عام؛ ليبحث عن حل لها. وأما بنوه؛ فبعد أن قرَّر نَقْلَ تبعةَ المعصية إليهم جميعًا مخالفًا بذلك أبسطَ قواعدِ العدل فضلًا عن الرحمة؛ فقد أرجأهم طويلًا؛ ليبحث عن حلٍّ،

وأنزل بهم جميعًا العذابَ، حتى توصَّلَ إلى الحلِّ فغيَّرَ مِن حُكمِهِ عليهم، وأبدلهم النعيمَ بالجحيمِ.

يتضح لنا مما تقدَّمَ أن النصارى- مع زعمهم بأن الله عليم بكلِّ شيءٍ- يثبتون لله- تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- أمورًا تنقضُ صفة العلم بوضوح وجلاء، وهذه الأمور هي:

١- **يؤمنون بالبداء**، وهذا لازم لهم من عقائد اليهود- كما بيَّنا سابقًا- يُضاف إلى ذلك أنه واضح من عقائدهم هم؛ حيث إنهم يعتقدون بأن الله تعالى أسكن آدمَ الجنةَ، فلما عصى آدمُ ربَّه أخرجه إلى الجحيمِ وكل بنيه بعده كذلك، حتى صُلِبَ المسيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم بدا له- بعد ذلك- أن يُخرِجَهم- جميعًا- من الجحيم إلى النعيم، ففعل بعد أن كان الحل خافيًا عليه، ثم بدا له ...كذلك؛

٢- **الحيرة والتردد.**

٣- **الجهل.**

٤- **العجز عن تصريف أمور الخلق.**

وهذه العقائد وما ترتب عليها واضح بطلانه وضوحًا لا يحتاج إلى بيان؛ فإنها كلَّها نقصٌ، والنقصُ محالٌ على الله تعالى بل إن بعضَهَا لَيُعَدُّ نقصًا بالنسبة للبشر، فكيف بالإله؟!





صفة القيام بالنفس

القيام بالنفس صفة من الصفات التي يثبتها المتدينون للذات الإلهية، ولا يعارض ذو دين في إثباتها لإلهه الذي يدين له- حقًّا كان ذلك الإله أو باطلًا-؛ ذلك أن صفة القيام بالنفس تعني: عدمَ احتياج الإله إلى غيره، واستغناءَه بذاته عن سواه؛ فهي صفة من الصفات التي اصطلحنا على وصفها بالسَّلبية، فالقيام بالنفس صفةٌ سلبية، معناها: سلبُ نقيضِها عن الذاتِ الإلهيةِ، وهو القيامُ بالغيرِ، أو الاحتياجُ إلى الغير.

وإثبات هذه الصفة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أمرٌ بدهيٌّ لا يحتاج إلى دليل؛ فإن الإله هو الذي خلق كلَّ شيء، ودبَّر أمْرَهُ، وكلُّ شيء في الوجود مستنِدٌ إليه في وجوده، وفي حفظ ذلك الوجودِ واستمرارِهِ، فلا بدَّ أن يكونَ ذلك الإلهُ قائمًا بنفسه، مستغنيًا عن غيره بذاته؛ إذ لا يُعقَلُ أن يخلقَ الأشياءَ، ثم يحتاج إليها، وهي في ذات الوقت محتاجة إليه قائمة به سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ولأن إثبات هذه الصفة للإله أمرٌ بدهيٌّ، فقد ذهبتْ كلُّ الطوائف إلى إثباتها

لآلهتهم، كلٌّ طائفة تثبتها لإلهها أو آلهتها.

لكنَّا نلاحظ أن كثيرين من المتدينين الذين يُثبِتون هذه الصفةَ لإلههم، أو لآلهتهم، إنما يثبتون هذه الصفةَ من حيث الشكل- فقط- وينفونها عن الإله من حيث الواقع، ويكون مآلُ الأمرِ- من حيث الواقع الذي يدينون به- أن الإله محتاج إلى غيره، وأنه غيرُ مستغنٍ بنفسه؛ لأن من احتاج إلى غيره بطل قيامُهُ بنفسه، وسوف نرى شيئًا من هذه الديانات التي يثبت أصحابها هذه الصفة لإلههم شكلًا، وينفونها موضوعًا، وذلك في الصفحات التالية.



عند اليهود

اليهود من الطوائف التي تثبت لله- سبحانه- تلك الصفةَ- صفةَ القيام بالنفس- ويؤكِّدون عليها. وهذا أمرٌ بدهيٌّ عندهم؛ إذ أن الله -تعالى- كان ولم يكن شيءٌ معه، ثم خلق كلَّ شيء وأوجده وصنعه ودبَّر أمرَهُ، فبدهيٌّ أن يكون كل شيء في حاجة إليه، وأن يكونَ هو غنيًّا عن كل شيء، هذا من حيث الشكل.

أما عن الواقع الذي عليه عقيدة اليهود فعلًا، فهذا ما تستطيع أن تكتشفه بوضوح شديد حينما تقرأ في كتبهم المقدسة التي يدينون بها، وترى بجلاء من خلال نصوصهم: أن القوم يعتقدون أن الله- تعالى عن ذلك- محتاج إلى غيره في كثير من الأمور، وفي كثير من الحالات.

وعلى سبيل المثال: فإننا نجد في توراة اليهود في سفر التكوين، أن النبيَّ يعقوبَ رأى الإلهَ يمشي ليلًا فعرفَهُ فأمسك به، وقال له: لا أُطْلِقُكَ حتى تبارِكَني، وأراد الرَّبُّ أن ينصرفَ، ولكن يعقوب أمسك به بشدَّةٍ، وظلا يتصارعان حتى طلعَ الفجرُ، والرَّبُّ يحاول أن يَنفَلِتَ مِن يد يعقوبَ فلا يستطيع،

واضطُّر في النهاية إلى أن يبارِكَ يعقوبَ؛ لكي يُطْلقه، ولم يستطع أن يفلت من يد يعقوبَ حتى رضي يعقوب وأطلقه بنفسه تقول توراة يهود: «فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، و لما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقَّ فخذه فانخلع حُقُّ فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يُدْعَى اسمك فيما بعدُ يعقوب، بل إسرائيل؛ لأنك جاهدتَ مع الله والناس وقدرت ...، فدعا يعقوب اسم المكان «فنيئيل» قائلًا: لأني نظرت الله وجهًا لوجه»[1].

وهذه الواقعة تدل على عقيدة اليهود في الإله، وأنه ليس غنيًّا بنفسه؛ بل هو عاجز عن تدبير بعضِ شأنه حتى يرضى الآخرون مِن خلقه، ولو كان غنيًّا بنفسه لما احتاج إلى غيره، وما توسل إلى يعقوب ليتركه.

وكذلك في سفر الخروج تحكي التوراةُ في مواضعَ كثيرةٍ: أن الرَّبَّ يغضبُ على شعب إسرائيلَ، وينسى وعده لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيشتدُّ غضبُهُ، ويريد أن يُهلِكَ الشعبَ، ولكنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يذكِّره بوعده لإبراهيمَ، فيتذكَّر ويرجع عن غضبه، وعن الشَّرِّ الذي أراده بشعبه تقول توراة يهود: «فقال الرب لموسى: رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة فالآن اتركني ليمحى غضبي عليهم وأفنيهم، فتضرع موسى أمام الرب و قال: ... ارجع عن حمو غضبك،

---

(١) تكوين، إصحاح (٣٢: ٢٤-٣٠).

واندم على الشر بشعبك، واذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبدك»[١].

ولو كان الإله مستغنيًا بنفسه عن الآخَرين لَـمَا احتاج إلى مَن يذكِّرُهُ بوعده لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكنَّ نسيانَهُ ذلك الوعدَ وتذكُّرَهُ إيَّاه حين ذكَّره موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم رجوعَهُ عن إهلاك الشعب بسببِ أن موسى ذكَّره، كلُّ هذا يدلُّ على أنه- تعالى عن ذلك- غيرُ مستغنٍ بنفسه، أو غيرُ قائمٍ بنفسه.

كذلك تَذْكُرُ توراةُ اليهودِ في سفر الخروج- أيضًا- أن الرَّبَّ أَمَرَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يَخْرُجَ ببني إسرائيلَ من مصر، وأَخبَرَ موسى بأنه سوف يَضرِبُ بيوتَ المصريين في تلك الليلةِ ضرباتٍ قاتلةً؛ حتى لا يستطيعوا مَنْعَ بني إسرائيلَ من الخروج، ولكن كيف يعرف الرَّبُّ بيتَ المصريِّ ليضربَهُ؟ كيف يُمَيِّزُ بيتَ المصريِّ من بيت اليهوديِّ، فلربما ضرب الرَّبُّ بعضَ الأبياتِ؛ فإذا هي أبياتُ اليهودِ، وليس المصريين! مِن أَجْلِ ذلك تَذكُرُ التوراةُ أن الرَّبَّ طلب من موسى أن يضع علامة محددة على بيت كل يهودي حتى يعرف الرَّبُّ أبيات اليهود فلا يضربها ويضرب أبيات المصريين فقط.

وهذه الواقعة توضح- في جلاء- كيف أن الرَّبَّ ليس غنيًّا بنفسه؛ بل هو محتاج إلى غيره ليعينه في التعرف على أبيات اليهود من غيرهم، والأمثلة على ذلك كثيرة من أسفارهم المقدسة التي يدينون بها.

نصل من ذلك إلى: أن العقيدة الصريحة الواضحة لبني إسرائيل هي أن الله- تعالى عن ذلك- محتاجٌ إلى غيره، وليس قائمًا بنفسه، غنيًّا عن غيره؛ ولذلك ورد في

---

(١) تكوين، إصحاح (٣٢: ٩-١٣).

التلمود- عندهم- أن الرَّبَّ يُذَاكِرُ التوراةَ والشريعةَ مع الأحبار اليهود في وقت بعينه؛ ورد في التلمود البابلي: «إن النهار اثنتا عشرة ساعة، وفي الثلاث الأولى منها يجلس الرب يذاكر الشريعة -التوراة- مع الحاخامات، وفي الثلاث الثانية يحكم، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يلعب مع الحوت ملك الأسماك»[1]. فما حاجة الرَّبِّ إلى المذاكرة إذا كان غنيًّا بنفسه؟ وما حاجته إلى حاخامات اليهود ليذاكر معهم توراتهم؟ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى بيان.

إنهم يوضحون له ما يخفى عليه من معاني التوراة التي أنزلها هو على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم أضحت خفيَّةً عليه حتى يحتاج إلى من يبينها له - نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى-.



(١) انظر: التلمود: تاريخه وتعاليمه وخفاياه، (ص٢٩١)، د. محمود مزروعة.

عند النصارى



عرفنا أن النصارى يعتقدون في آلهة ثلاثة، الآب، والابن، والروح القدس.

وقد سبق أن أوضحنا أن الابنَ، والرُّوحَ القدس ليسا موجودَينِ لذاتيهما؛ بل هما موجودان لغيرهما، وأنهما يستندان في وجودهما إلى الإلهِ الأبِ؛ ذلك أن الإلهَ الأبَ وجد نفسَهُ في حاجة إلى شخصٍ ثانٍ ليبادِلَهُ المحبةَ، وليأتَنِسَ به، فأوجد الإلهَ الابنَ، ثم عن المحبة المتبادلة بينهما وُجِدَ الإلهُ الرُّوحُ القدس، وهو الإله الثالثُ، وكما يقول القس بولس إلياس اليسوعي: «... فلِيكون الله سعيدًا- ولا معنى لإلهٍ غيرِ سعيدٍ، وإلا انتفت عنه الألوهية- كان عليه أن يهبَ ذاتَهُ شخصًا آخَرَ يجد فيه سعادتَهُ ومنتهَى رغباتِهِ، ويكون بالتالي صورةً ناطقة له؛ ولهذا وَلَدَ اللهُ الآبُ اللهَ الابنَ منذ الأزلِ نتيجةً لحبه إياه، ووهبه ذاتَهُ ووجد فيه سعادتَهُ، ومنتهَى رغباته، وبادَل الابنُ الأبَ هذه المحبة، ووجد فيه سعادته، ومنتهَى رغباته، وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الأب والابن كانت الرُّوحَ القدس»[1].

---

(١) راجع المبحث الخاص بالوجود من هذه الدراسة (ص٣١).

والنص واضح في أن الإلهَ الابنَ والرُّوحَ القدس، لم يكونا موجودَينِ، ثم أوجدهما الأبُ لحاجته إليهما، أو لحاجته إلى الابنِ، ثم وُجد الرُّوحُ القدس نتيجةً للعلاقة بين الاثنين.

نخلُصُ من ذلك إلى: أن الإلهَ الابنَ، والإلهَ الرُّوحَ القدس، ليسا قائمين بذاتيهما، ولا تثبت لهما هذه الصفةُ (صفةُ القيامِ بالنفسِ، أو الاستغناء عن الغير)؛ فإن الإلهين المزعومين- الابن والروح القدس- يستندان في وجودهما إلى الإله الأب، وهذا معنى قولنا: إن وجودهما لغيرهما، وليس لذاتيهما، فهما- إذن- محتاجان إلى غيرهما في وجودهما، ثم في كلِّ ما ينبني بعد ذلك على هذا الوجود من صفات، وإذا كانا محتاجَينِ إلى غيرهما فقد انتفَى أنْ يكونَ أحدُهما قائمًا بذاته، أو قائمًا بنفسه، أو مستغنيًا عن غيره.

هذا عن الإله الابنِ، والإله الروح القدس، في عقيدة القوم، فماذا عن الإلهِ الأبِ؟

يزعم النصارى أن الإلهَ الأبَ قائمٌ بنفسه، مستغنٍ بذاته عن غيره، ولكنَّ الناظرَ في عقائد القوم يرى- للوهلة الأولى- ويدرك- دون ما عناء وبوضوح شديد- أن النصارى ينفون هذه الصفةَ عن الإله الأبِ، ويثبتون نقيضها له؛ فالإلهُ الأبُ عندهم غير قائم بنفسه، بل هو محتاج إلى غيره.

وهذا واضح عند النصارى في أحوالٍ كثيرةٍ وعقائدَ عديدةٍ، لكنَّا هنا نكتفي بأن نشيرَ إلى أمرين يتضح في كل منهما عقيدة القوم في عدم قيام الإله بنفسه، واحتياجه إلى غيره.

الأمر الأول: أن النصارى يؤمنون بتوراة اليهود، ويلتزمون بكل ما جاء فيها من عقائد تُثبت احتياج الإله إلى غيره، وعدم قيامه بنفسه، على ما أوضحناه في الفقرة

السابقة الخاصة باليهود؛ فالنصارى مؤاخَذون بكلِّ ما أخذناه على اليهود من العقائد الفاسدة التي تُثبتُ احتياجَ الإلهِ إلى غيره، في نصوصٍ قاطعةٍ ثابتةٍ في توراة اليهود التي هي القسمُ الأول من الكتاب المقدس عند النصارى، والذي يسمونه: «العهدَ القديمَ».

الأمر الثاني: أن النصارى يعتقدون أن الإلهَ الأبَ محتاجٌ لكي يكونَ إلهًا إلى وجودِ الإلهِ الابنِ، حتى يُفيضَ على الابنِ محبَّتَهُ، ويبادله الابنُ المحبةَ فيصبح سعيدًا، ويجد فيه سعادته، ومنتهَى رغباته، فالإله الأب لا يكون إلهًا بدون الابن؛ لأن الابن بوجوده يحقق السعادة والرغبة للإله الأبِ، وبدون هذه السعادة التي يحققها الابن للأب يفقد الأبُ صلاحيته وصفته كإله، وهذا واضح من النصِّ الذي نقلناه عن عالم من علمائهم؛ فالنص يقول: «فلِيكون الله سعيدًا- ولا معنى لإلهٍ غيرِ سعيدٍ، وإلا انتفت عنه الألوهية- كان عليه أن يَهَبَ ذاته شخصًا آخَرَ يجدُ فيه سعادته، ومنتهَى رغباته». فلِكَي يكونَ الإلهُ إلهًا لا بدَّ أن يكون سعيدًا، ولكي يكون سعيدًا لا بدَّ من وجود الابنِ، إذن: لكي يكونَ الإلهُ الأبُ إلهًا لا بدَّ من وجود الابن، وبدونه لا يكون إلهًا.

نصل من ذلك إلى: أن الأبَ محتاج إلى الابن، ومحتاج إليه في صفته كإله؛ فلا تتحقق ألوهيته إلا بوجود الابن، وإذا كان الابن معلولًا للأبِ في وجوده؛ فإن الأب معلول للابن في ألوهيته التي لا تتحقق إلا بوجوده، كذلك هو محتاج إلى الابن في تحقيق رغباته، وتوفير سعادته، وإذا كان الإلهُ محتاجًا فهو غيرُ قائمٍ بنفسه، ولا مستغنٍ بذاته عن غيره.

وتفاهَةُ هذه الأفكارِ، وتهافُتُ هذه العقائدِ وسقوطُهَا، لا يحتاج إلى عناء كبير، فأيُّ إلهٍ ذلك الإلهُ الذي يَستَمِدُّ ألوهيته مِن وجودِ آخَرَ؟! أو يستنِدُ في ألوهيته إلى غيرِهِ؟! وإذا كان الإلهُ لا يستنِدُ إلى ذاته، ولا يقومُ بها، فكيف يستند إليه الوجودُ كلُّهُ- خلقًا وحفظًا وتدبيرًا؟!

القسم الرابع

النبوة والأنبياء

عند اليهود

يعتقد اليهود في الأنبياء والرسل، ويؤمنون بأنهم بشرٌ يختارهم الله ويصطفيهم ليبلغوا دينه إلى الناس كافَّةً، ومنذ وُجد بنو إسرائيلَ وعقيدتهم أنه قد انحصرَتْ فيهم النبوةُ والأنبياءُ، وصار الدين وقفًا عليهم من دون الناس جميعًا، واقتصرت النبوة والأنبياء عليهم؛ لأنهم شعبُ الله المختار، ولأنهم أبناءُ الله وأحباؤه، هكذا يعتقد اليهود.

والأنبياء عند اليهود على ثلاثِ مراتِبَ:

١- **الآباءُ أو البطاركة**، وهؤلاء هم الذي يحتلون أعلى مرتبة، وأسمى منزلة في عقيدة اليهود. وهم يبدأون بآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وينتهون بيعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهؤلاء عند اليهود أنبياء وملوك وأمراء؛ فهم الرؤساء في أمور الدين وأمور الدنيا على سواء.

٢- **الأنبياء العظام أو الكبار**، وهؤلاء هم الأنبياء من بني إسرائيل الذين كان لهم دور بارز في حياة اليهود، وبخاصة في أوقات المحن والمصائب والشدائد التي تقع باليهود، وما أكثرَها!

٣- تأتي بعد ذلك مرتبة: **الأنبياء**، وهم عامة الأنبياء الذين بُعثوا إلى بني

إسرائيلَ لهدايتهم وإرشادهم.

هذه مراتب الأنبياء في عقيدة بني إسرائيل، وقد ذكر بنو إسرائيل في أسفارهم عددًا كبيرًا من الأنبياء، لا نملك أن نُصَدِّقَ مِن هؤلاء إلا بما ورد ذِكره منهم في القرآن الكريم، أما مَن عدا هؤلاء فنحن لا نملك أن نصدق بهم أو نكذب؛ إذ لا دليلَ لدينا نستندُ إليه في تصديق أو تكذيب؛ فإنه من المحتمل أن يكونوا أنبياء بحق، أو أن يكونوا أنبياء منحولين زورًا، ادَّعى اليهود أنهم أنبياء وليسوا بأنبياء.

وهذا التفصيل بين الأنبياء عند اليهود لا اعتراض لنا عليه من حيث المبدأ فقط، نعني: الاعتقاد بأن الأنبياء يتفاضلون فيما بينهم بخصائِصَ اختصَّ الله بها بعضَهم دونَ بعضٍ.

والله تعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ونحن نؤمن بأن أُولي العزمِ من الرُّسل أفضلُ مِن غيرهم، ونؤمن بأن خاتمهم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلُهم جميعًا بلا استثناء؛ يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أنا سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامَةِ، ولا فخر...»**[1].

لكنَّا لا نُسَلِّمُ لهم هذه التقسيمات التي قسموا الأنبياء بناء عليها، ووضعوا بمقتضاها بعضَهم فوق بعضٍ؛ لأن مقاييسَهم وموازينَهم باطلةٌ وفاسدةٌ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٩٨٧)، والترمذي (٣٦١٥) وقال: حديث حسن.

موقف اليهود من الأنبياء:

تذكر التوراة اليهودية- في صراحة ووضوح- تلك العقائدَ الباطلة الفاسدة التي يعتقدها اليهود في أنبيائهم، والمواقف المخزية التي يقفونها منهم. والأمثلة على ذلك كثيرة من نصوص توراتهم المحرفة.

وعلى سبيل المثال: نستطيع أن نقرأ في توراتهم ما كتبوه عن:

١- إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين نزل بزوجِهِ سارةَ إلى مصرَ، وسلك سلوكَ الذي يتاجر بزوجِهِ ليكسبَ الأموالَ من فرعونَ، الذي تذكر التوراة اليهودية أنه عاشر سارةَ معاشرةَ الأزواج.

ومثل ذلك فعل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع أبي مالكٍ ملكِ جيرار؛ فكأنما إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يدور بالبلدان متاجرًا بزوجه ليربحَ من وراء ذلك الأموالَ[1].

٢- قصة لوطٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، التي تنصُّ التوراة أنه زنى بابنتيه، وأنجبت كل ابنة من أبيها ولدًا ذكرًا، وتفرع عن هذين الولدين شعبانِ كبيرانِ[2].

٣- ما تحكيه التوراة المحرَّفة عن يعقوبَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكيف سَرَقَ ميراثَ أخيه عيسو مِن أبيهما إسحاقَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بعد أن حاك مؤامرةً بمساعدة أمةٍّ كلُّها كذبٌ وتدليسٌ وخِسَّةٌ[3].

٤- ما تحكيه التوراةُ عن داودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وما وقع منه مع زوجِ الجنديِّ المخلص

---

(١) الفقرات من (١٠-٢٠) من الإصحاح (١٢) من سفر التكوين، وكذلك إصحاح (٢٠) من نفس السفر.

(٢) إصحاح (٣٠)، من سفر التكوين.

(٣) سفر التكوين إصحاح (٢٥)، الفقرات (٢٠-٢٦).

(يوريا أو أوريا)؛ فقد زنى بها -كما يزعمون-، وحاول أن يُلحِقَ حملَها بزوجِهَا- ظلمًا- ولـمَّا عجز عن ذلك لجأ إلى قتل زوجها لكي تخلص له المرأة... إلخ(١)

٥- ما تذكره التوراة عن سليمانَ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، من أنه في أخريات حياته تزوَّج بالنساء المشركات، ثم غلب حبُّ هؤلاءِ النسوةِ قلبَهُ إلى حدٍّ أنه مال معهن، وأصبح يَعبدُ آلهتهن اللائي كُنَّ يَعبدُنَ(٢).

٦- سلوكهم مع أنبيائهم، ذلك الذي يُعتَبَرُ ترجمةً واقعيةً وعمليةً لعقائدهم الفاسدةِ في هؤلاء الأنبياء؛ حيث كانوا يُكذِّبون الأنبياء ويَضطهدونهم، ويتآمرون عليهم، حتى وصل الأمر- في كثير من الأحيان- إلى حدٍّ أنهم كانوا يقتلون النبيين بغير الحق، ولقد أخبر القرآن الكريم عنهم هذه الفظائع، فقال تعالى:

﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

وقال تعالى:

﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

---

(١) صموئيل الثاني، الإصحاح الحادي عشر.

(٢) الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر.

تقويم هذه العقيدة:

١- واضح مما سبق أن موقفَ اليهود من أنبيائهم موقفٌ شاذٌّ وعجيبٌ، وهو لا يستقيم مع بداهة العقلِ ومُسلَّماتِ الفطرةِ؛ ذلك أنَّ الأنبياءَ إنما بُعثوا لهداية الناس، وإرشاد الضَّالِّ، وإنابة العاصي، وهم الأسوة والقدوة التي بها يتأسَّى الناسُ ويَقتدون، وأن هذه هي مهمتهم التي اختارهم اللهُ واصطفاهم للقيام بها؛ فالعقل يقضي بأن يكون هؤلاء في القمة من الخُلُقِ، والذروة من السلوك، حتى يكونوا صالحينَ لأداء ما اختيروا لأجله. ومما يناقِضُ العقلَ ويعارِضُ الفطرةَ أن يكونَ المصطَفَونَ على أخلاقٍ يَتَنَزَّهُ عنها سفلةُ الناسِ وشُذَّاذُهُم. وإن كانوا على هذه الأخلاقِ ففيم اختيارُهم واصطفاؤُهم؟

٢- كذلك فإن الأنبياءَ مبعوثو الله تعالى إلى الخلق؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي اصطفاهم وأرسلهم إلى الناس؛ لينقلوا إليهم دينَهُ، ويبلِّغوهم شريعَتَهُ، وأَمَرَ الناسَ بالاستجابةِ لهم، والسيرِ على هُداهم؛ فهم يُخاطِبونَ الناسَ باسم الله تعالى والناس يسمعون ويطيعون بأمر الله تعالى فإذا كان الرسلُ كاذبين، فاسقين، مخادعين، زناةً، قتلةً، بل ومشركين- أيضًا- كما زعموا في سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإن ذلك يعني- بالدرجة الأولى، وبطريقٍ مباشِرٍ-: طعنًا ونقصًا في ذات الله- جلَّ عن ذلك- من حيث إنه- سبحانه- هو الذي اختارهم وأرسلهم وأَمَرَ الناسَ باتباعهم، فالطعنُ فيهم يعني طعنًا صريحًا ومباشرًا في مُرسِلِهِم- سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا.

عند النصارى

يعتقد النصارى في نوعين من الأنبياء والرسل:

النوع الأول: ما ورد ذكره في توراة اليهود التي يجعلها النصارى القسمَ الأول من القسمين اللَّذَينِ يتكون منهما كتابُهم المقدس، ويسمونها: «العهدَ القديمَ». ونحن نعلم أن النصارى يعتقدون في توراة اليهود، ويؤمنون بكلِّ ما ورد فيها، ومن ذلك: ما جاء فيها عن النبوة والأنبياء، وعلى ذلك؛ فالنصارى يؤمنون بكل الأنبياء الذين ورد ذِكْرُهم في توراة اليهود، أو ما يسميه النصارى بالعهد القديم، ويؤمنون كذلك بكل ما ورد في توراة اليهود مِن قَصَصٍ يتعلق بهؤلاء الأنبياء دون زيادة أو نقص؛ فعقيدة النصارى في ذلك لا تختلف عن عقيدة اليهود في قليل أو كثير؛ لأن النصارى إنما يأخذونها من توراة اليهود على ما هي عليه عند اليهود.

النوع الثاني: ما ورد ذِكْرُهُ في كتب النصارى وأناجِيلِهِمُ المقدَّسة عندهم، والتي يطلقون عليها اسم: «العهد الجديد»، من أشخاص أطلقوا عليهم اسم «الرسل»، وهؤلاء الرسل عند النصارى أصناف ثلاثة:

١- تلامذة المسيح الرَّبِّ- بزعمهم- وهم الحواريون، كما يُسمونهم- أحيانًا.

٢- الأشخاص الذين ظهر لهم المسيحُ الرَّبُّ- بزعمهم- بعد أن صُلِبَ ومات، ثم قام مِن الأموات -برأه الله مما قالوا-، فهم يزعمون أن المسيحَ الرَّبَّ بعد أن قام مِن الأموات ظَلَّ في الأرضِ يُعَلِّمُ هؤلاءِ الأشخاصَ الذين اختارَهم من بين الناسِ، وكان يظهر لهم وحدَهم ويُعَلِّمُهم دينَهُم، ويُلقِي إليهم بأوامِرِه وتوجيهاتِهِ، ويُعَرِّفُهم أصول الدين وفروعه، وقد علَّمهم- ضمن ما علَّمهم- سِرَّ ألوهيتِهِ، وسِرَّ التثليثِ، ثم أَمَرَهُم بأن ينتشروا في الأرض ويدعوا الأممَ إلى دينه، ثم صعد بعد ذلك إلى السماواتِ، وجلس هناك على كرسيه عن يمينِ أبيه.

٣- هؤلاءِ الذين كلَّفَهم المسيحُ الرَّبُّ- بزعمهم- بأن ينشروا دينه، ويُبَشِّروا بربوبيته، وذلك بعد أن صعد إلى السماوات، وهؤلاء كان يظهر لهم المسيحُ الرَّبُّ في اليقظةِ، أو في الرُّؤَى، أو يُسمعهم صوته، وهؤلاء غير محصورين على التحديد؛ لأنه قد وُجد منهم كثيرون، ويمكن أن يُوجَد- أيضًا- فإن المسيحَ الرَّبَّ لم يقطع صِلته بالناس، وليس هناك ما يَمنع من ظهورِهِ لأيِّ رجلٍ صالح من المؤمنين بربوبيته، وأشهرُ هؤلاء الذين ظهر لهم المسيحُ الرَّبُّ بعد صعوده إلى السماوات هو: «بولس الرسول»، الذي كان اسمه «شاءول» ثم ظهر له الرَّبُّ، وأخبرَهُ بحقيقة ألوهيته وربوبيته، ثم طلب منه أن يَنْشُرَ دينَهُ، وكذلك لوقا، ومرقس، ويوحنا اللاهوتي وغيرهم.

الفرق بين النوعين:

هنالك فروق كثيرة بين هذين النوعين من الأنبياء والرسل الذين يؤمن بهم النصارى، وأهم هذه الفروق ما يلي:

١- أن الأنبياء في العهد القديم، أو في توراة اليهود، كانوا يؤمنون بأن الله

تعالى واحد، وقد عاشوا وماتوا على ذلك، ولم يكونوا يدركون سِرَّ التثليث الذي كشفه الله للناس بظهورِ ابنِهِ وصَلْبِهِ وموتِهِ وقيامَتِهِ مِن الأمواتِ -كما يزعمون-.

أما الرسل في العهد الجديد، أو في أسفار النصارى؛ فقد عَرَفُوا سِرَّ التثليثِ، وآمنوا بربوبية المسيحِ الرَّبِّ وابنِ الرَّبِّ، والروح القدس الذي وُجد مِن الصلة بين الأب والابن، وعرفوا حقيقة الله التي هي تثليثٌ في توحيد، وتوحيدٌ في تثليث، أو ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة !

٢- أن الأنبياء في العهد القديم، أو في توراة اليهود، كانوا مُلَوَّثين بالخطيئة الْـجَدِّية(١)، وكانوا ما يزالون مستحِقِّينَ العقوبةَ؛ ولذا فحينما ماتوا أُهبِطُوا إلى الجحيم.

---

(١) الخطيئة الجدية: نسبة إلى الجد -آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ- وهي أكله من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الأكل منها، ولذلك نسبت الخطيئة إليه عَلَيْهِ السَّلَامُ باعتباره جدًّا للبشرية كلها والنصارى ينطقون الخطيئة بلا همزة، ويُضَعِّفون الياء، فيقولون: الخَطِيَّة الجدِّيَّة.. وفي هذه الخطيئة بحث يبين التناقض في العقيدة بيننا وبينهم.

فنحن نؤمن بأن الله تعالى قد قدَّر كل شيء بناء على علمه السابق بكل صغيرة وكبيرة، وأنه تعالى قد خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ويعلم سبحانه ما سيقع منه قبل أن يقع، وقد رتب تعالى على خطيئة آدم هبوطه إلى الأرض وعمارته إياها، وكان ما حدث من عصيان آدم أمر رَبِّهِ من قضاء الله تعالى ليتم الله تعالى ما يشاء ولذلك ورد في الحديث الصحيح بين آدم وموسى عليهما السلام قول آدم لموسى: «أتلومني على قضاء قضاه الله في»، أو كما قال ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، فالله تعالى خلق آدم للأرض وليس للجنة. أما النصارى فعقيدتهم أن الله تعالى لم يكن يعلم أن آدم سيعصى ويأكل من الشجرة، ولذلك فوجئ الرب سبحانه بما فعل آدم ويقول النصارى: «إن الله -تعالى عما يقولون- قد تحير حين عصاه آدم بين صفتين من صفاته هما: صفة العدل وصفة الرحمة. لأن صفة العدل تقتضي إيزال العقوبة بآدم ولكن ذلك يعني إهدار صفة الرحمة وصفة الرحمة تقتضي أن يعفو الله عن آدم ولكن إن عفا الله عن آدم فقد تحققت صفة الرحمة لكن أُهْدِرت صفة العدل، وإن عاقب آدم فقد تحققت صفة العدل ولكن أهدرت صفة الرحمة وهكذا يعتقدون ويقولون لا معنى لإله لا يتحقق فيه العدل والرحمة معا فكيف يحل الإله ذلك الإشكال الذي لم يكن يعلم بأنه سيقع

أما الرسل في العهد الجديد، فقد جاءوا بعد نزولِ المسيحِ ابنِ الله وصَلْبِهِ تكفيرًا عن البشر، وبذلك كانوا غيرَ ملوَّثِينَ؛ حيثُ قد كُفِّرَتِ الخطيئةُ، ورُفِعَتْ عقوبَتُها بصلبِ ابنِ الله؛ ولذلك عاشوا طاهرين، وماتوا طاهرين، وذهبوا بعد الموتِ إلى النعيم.

٣- كان الأنبياء في العهد القديم يتلقون الوحيَ عن الله تعالى بالواسطة، بواسطةِ الـمَلَكِ، أو بسماع الصوتِ دون رؤية صاحبه، أو بالرؤيا المنامية، أو بالإلهام.

أما الرسل في العهد الجديد فهم يُعاينون المسيحَ الرَّبَّ مباشرةً، ويرونه ، يأخذون عنه؛ فالرُّسُلُ الذين اختارَهُم قبل صعودِهِ إلى السماء كان يَعيشُ بينهم ويلتقي بهم ويظهر لهم لِيُعَلِّمَهم.

وأما الرسل الذين اختارهم بعد رفعِهِ إلى السماوات؛ فهؤلاء يظهر لهم بشخصِهِ، أو يسمعون صوته.

٤- كان الأنبياء السابقون سفراءَ بين الله والناس، وفي هذا الإطار تنحصِرُ

=

وظل الإله في حيرة شديدة لمدة تقرب من سبعة ألاف عام حتى وصل -كما يزعم النصارى- إلى الحل الذي تمثل في إنزال ابنه الوحيد ثم في صلبه فداء لآدم وَبَنِيه.

ويقولون: إن خطيئة آدم ما كانت تحل بعقوبة آدم لأنها خطية لا متناهية، فتحتاج إلى عقوبة لامتناهية، ولا تتحق العقوبة اللامتناهية إلا إذ انزلت بإله وابن إله، لأن آدم شخص متناه والعقوبة اللامتناهية تحتاج شخصًا لا متناهيا وذلك هو الإله ابن الإله أما لماذا كانت خطيئة آدم لا متناهِ ة رغم حدوثها من شخص متناه، فذلك لأنها: ١- أول خطيئة وقعت في حق الرب من الخلق.

٢- لأنها وقعت في الجنة.

٣- لأنها وقعت من آدم أبي البشرية كلها ومنه المسيح ابن الله...

رسالاتهم؛ فهم يَنقلون عن الله- سبحانه- ما يأمُرُهم بتبليغِهِ إلى الناسِ دون زيادةٍ أو نقصان، والقرآن مليءٌ بالآيات التي تُوضِّحُ هذا المعنى بالنسبة لخاتَمِ الرُّسُلِ، يقول الله تعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦]

أما الرُّسُلُ في أسفار النصارى في العهد الجديد فهم يَملكون حقَّ التشريع، ويملكون التحليلَ والتحريمَ، وذلك بمقتضى تلك الصلاحيةِ التي منحهم إياها المسيحُ الرَّبُّ- بزعمهم-؛ فهم يَزعمون أن المسيحَ الرَّبَّ بعد قيامَتِهِ مِن الأموات، وقبلَ صعوده إلى السماوات، أعطى سلطانَهُ للكنيسة، والمرادُ بالكنيسةِ هم: رجالُها، والمقصود بالسلطان هو: كلُّ قدراته وإمكاناته وصلاحياته كربٍّ وإلهٍ؛ ولذلك فإن رجال الكنيسة قد أصبح بإمكانهم وفي سلطانهم أن يُحِلُّوا ويُحَرِّموا، ويغفروا الذنوبَ للمذنبين، بل في إمكانِهِم أنْ يُحَرِّمُوا الجنةَ على مَن لا يرضون عنه، فيمنعونه مِن دخول ملكوتِ السماوات، وكذلك في إمكانهم الإتيانُ بالخوارِقِ التي كان الرُّبَّ يصنعُها، مثل: إحياءِ الموتى، وإبراءِ المرضى.

نقد عقيدة النصارى في الرسل:

سبق أن تكلمنا عن موقف اليهود من أنبيائهم، وقوَّمنا موقِفَهم هذا، وبيَّنا ما فيه من مخالفةٍ صريحةٍ لمسلَّماتِ العقلِ والفطرةِ، وطعنٍ في حكمةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يَصطفي الأنبياءَ، ويُرسِلُ الرُّسُلَ- صلوات الله عليهم أجمعين.

وفي هذه الفقرة نناقش عقيدةَ النصارى في الأنبياء والرسل، ونقوِّمها حسب ما اتضح لنا مِن دراستنا في السطور السابقة.

وتقويمنا موقفَ النصارى إنما يقومُ على أمرين:

الأمر الأول: اعتقادُهم في الأنبياء الذين ورد ذِكْرُهم في توراةِ اليهودِ، والتي يُطلِقُ عليها النصارى اسمَ «العهد القديم»؛ فالنصارى يؤمنون بالتوراةِ اليهوديةِ، ويَلتزِمون بكلِّ ما ورد فيها مِن أمورٍ تتصل بالأنبياء، تلك الأمورُ التي تشتمل على الطعنِ في أنبياءِ الله ورسلِهِ، وإلصاقِ التهمِ بهم؛ مما يتنزه عنه أكثرُ الناسِ فسوقًا وعصيانًا، على ما سبق بيانه عند الحديث على عقيدة اليهود في الأنبياء.

وموقف النصارى في هذا ينطبقُ عليه ما سبق أن أخذناه على اليهودِ في هذا الصَّدد، فهم مؤاخَذون على تلك العقيدةِ بنفس ما أُخِذَ على اليهود.

الأمر الثاني: اعتقادُهم في رسلهم الذين ورد ذِكرُهم في أسفارهم المقدسةِ والتي تُسمَّى «العهدَ الجديدَ»، وهي الأسفار الخاصَّة بالنصارى، ولنا على عقيدتهم هذه ملاحظاتٌ، أهمُّها:

١- أن الرسل عند النصارى يختلفون عن الرسل الذين يؤمن بهم كافة المتدينين، وذلك واضح من الفروق التي ذكرناها سابقًا بين الرسلِ الذين يؤمن بهم النصارى، والرسلِ الذين يؤمن بهم اليهودُ، وكذلك يؤمن بهم كافة المتدينين.

٢- أن النصارى يؤمنون بنوعين مِن الرُّسُلِ، لكلِّ نوع منهما سماتٌ وخصائصُ تتناقضُ تمامًا مع الرسل الذين يكوِّنون النوعَ الثاني، على ما اتضح من الفروق التي ذكرناها قبلًا.

٣- أن النصارى قد رفعوا رُسُلَهم حتى أحلُّوهم محلَّ الإلَهِ نفسِهِ، حين زعموا أن الإلهَ قد منحَهُم سلطانَهُ، وأعطاهم إمكاناتٍ لا يقدر عليها إلا الرَّبُّ نفسُهُ.

٤- أن النصارى- بمقتضَى تلك العقيدةِ التي منحوا بمقتضاها سلطانَ الرَّبِّ لرجال الكنيسة- قد جعلوا رجال الكنيسة في منزلة الرَّبِّ، وبذلك أفسدوا رجالَ الكنيسة وأَطْغَوهم، وجعلوا رجالَ الكنيسة يتصرَّفون كآلهةٍ، يُدخلون الجنةَ مَن يشاءُون، ويُحرِّمونها على مَن يشاءُون، ووصل الأمرُ في النهايةِ إلى تلك التجارةِ الدَّنِسَةِ التي قامت على الارتزاقِ بما عُرف باسم: «صُكوكِ الغفرانِ».

٥- بهذه العقيدة التي تقول: إنَّ الرَّبَّ مَنَحَ سلطانَهُ للكنيسة، أي: لرجالها، تَقلَّصَ سلطانُ الرَّبِّ ومكانَتُهُ، وضَعُفَ تأثيرُهُ على النصارى، أو انعدَمَ تمامًا، وحَلَّ محلَّهُ سلطانُ رجالِ الكنيسة الذين غَيَّروا وبَدَّلوا مِن دينِ الله، فضلُّوا وأَضَلُّوا، وملأوا الدنيا فسادًا استنادًا إلى سلطانِهِمُ الإلهيِّ المزعومِ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا بقوله تعالى في شأن اليهود والنصارى-: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١].

فاليهود اتخذوا الأحبارَ أربابًا مِن دون الله- سبحانه- والنصارى اتخذوا الرُّهْبَانَ أربابًا من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُشرِّعون لهم ويُحلِّون ويُحرِّمون، وإن هذه انتكاسَةٌ تضع الإنسانَ في أخسِّ موضعٍ وأسفلِ منزلةٍ، تلك المنزلةُ التي يرتَدُّ الإنسانُ فيها إلى أسفل سافلين حين يَترُكُ ربَّهُ، ويتوجَّهُ بالعبادة والدينونة إلى بشرٍ مثلِهِ، وأيُّ شيءٍ تكون العبادة والدينونة إن لم تكن خضوعًا وإذعانًا لأحكام وتشريعات يستجيب لها الناس ويُذعِنون باسم الدين؟!

الخاتمة

الحمد الله أولًا، والحمد لله آخِرًا، ثم الحمد لله على كل حال، والصلاة والسلام على أول المسلمين، وخاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين.

أما بعد:

فهذا ما أمكن تقديمه- بحول الله تعالى في موضوع مقارنة الأديان، وهو عُجَالَةٌ مختصَرَةٌ في موضوع يجب فيه التريُّثُ والأناةُ، والتوسُّعُ والشمولُ.

ولعل الله ﷻ يُمكِّن لنا مِن فسحة الأجل، ويُسْرِ السُّبُلِ، ما نستطيعُ معه أن نُكْمِلَ ما نقصَ، ونستدرِكَ ما فاتَ، وأسألُهُ تعالى أن ينفعَ به، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

والحمد لله ربِّ العالمين



محتويات الكتاب

❀❀❀


تم بحمد الله

